العصبية القبلية والعرقية

وأثرها على الشعر العربي في الأندلس
حتى عصر ملوك الطوائف

إعـــداد

د/ محمد مبروك عطية

مدرس الأدب والنقد

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات

بالإسكندرية - جامعة الأزهر

مُقَدِّمَة

تمثل العصبية القبلية في تاريخ الشعر العربي منذ العصر الجاهلي باباً من أبواب الشعر الكبرى، ومثيراً من أهم مثيراته، وذلك بما أشعلته على المستوى السياسي والاجتماعي من مواقف الصدام المسلح، أو التحرش القولي، وبالتالي فقد نبع شعر الهجاء وكذلك شعر الفخر وشعر الحماسة في شطر كبير منه من منبع العصبية القبلية .

وذلك أن الأمة العربية قبل الإسلام كانت تحيى حياة قبلية خالصة، تتمتع كل قبيلة منها باستقلال شبه تام، وتتصارع قبائلها من أجل الكرامة والاستقلال، ومن أجل البقاء كذلك، وكانت هذه القبائل تنتمي – في الأصل– إلى شعبين كبيرين هما قحطان أو عرب اليمن، وعدنان أو عرب الحجاز ونجد، وبالتالي كانت قبائل كل شعب تتعصب لبنى جنسها، لكن بمضي الزمن انقسم أبناء كل شعب إلى عصبيات فرعية، كتلك التي حدثت بين قبائل مضر وأبرزها قيس غيلان وتميم وأسد، وقبائل ربيعة وأبرزها بكر وتغلب، وجميعها من عدنان .

وإذا كانت هذه العصبيات قد هدأت قليلاً بعد ألإسلام إبان عهد النبي ﷺ وخلفائه الراشدين، بفعل الأثر الروحي لقيم الإسلام وتعاليمه، وبفضل السياسة الرشيدة في التقريب بين الناس وإصلاح ذات البين، إلا أنها قد عادت إلى الظهور من جديد إبان عهد بني أمية، إذ عمل حلفاؤهم على اصطناع بعض القبائل ذات العصبية والعادات، مما حدا بالقبائل الأخرى إلى الانضمام إلى صفوف الأحزاب المناوئة لحكم بني أمية من شيعة وزبيريين وخوارج، مما أعاد تلك العصبيات بصورة أعنف مما كانت عليه قبل ذلك .

وقد أثارت هذه العصبيات القبلية الشعر في العصر الأموي وعملت على ازدهاره وتطويره، وظهرت فنون شعرية جديدة كانت وليدة تلك النزعة، وأبرزها فن النقائض الذي

جمع بين الهجاء القبلي والفخر بالأحساب والأنساب، ووصف الوقائع والصراعات، والتذكير بالأيام، هذا بالإضافة إلى المدح السياسي والقبلي .

ذلك الازدهار الشعري الذي يعزى – في الغالب– إلى تلك العصبيات وما أنتجته من شرور وحزازات يذكرنا بمقولة الأصمعي الشهيرة : «الشعر نكد بابه الشر، فإذا دخل في الخير لان» . (١)

وإذا كان موضوع هذا البحث يدور حول تلك النزعة وأثرها في الشعر العربي في الأندلس، فإن ذلك يفرض علينا تحديد الإطار الزماني لهذا البحث ومعالمه وأطواره، فالأندلس قد فتحت في نهايات القرن الهجري الأول وبالتحديد عام ٩١ هـ على يد أمير إفريقية موسى بن نصير وقائد جيوشه طارق بن زياد، وكان الأول عربياً من اليمنية، وكان الثاني من بربر إفريقية، وكانت جيوشها كذلك تتألف – في الغالب– من العرب والبربر، مما أسهم في نقل تلك العصبيات القبلية إلى أرض الأندلس، وأضاف إليها لوناً آخر من العصبيات ظهرت آثاره فيما بعد وهو العصبية العرقية نظراً لتفاوت أعراق سكان الأندلس بين عرب وبربر ومولدين .

وقد مرت الحياة السياسية في الأندلس بمراحل أو عصور عدة، يهمني منها ما يدخل في إطار هذا البحث وهى ثلاث مراحل أساسية : أولاها عصر الولاية ويمتد منذ فتح الأندلس وحتى قبل دخول عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالداخل إلى الأندلس سنة ١٣٠ هـ، وقد تعاقب على حكم الأندلس فيها عدد من الأمراء العرب بعضهم من اليمنية وبعضهم من القيسية، مما أسهم في إشعال العصبيات وبث القلاقل والفتن .

وأما العصر الثاني فهو عصر الإمارة، ويستمر منذ استقلال عبد الرحمن الداخل بحكم الأندلس وتأسيسه لعرش الأسرة الأموية بها سنة ١٣٠ هـ وحتى سقوط عرش الخلافة

(١) الأصمعي : فحولة الشعر تحقيق ش . توزي وقدم لها الدكتور صلاح الدين المنجد ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .

الأموية في مطالع القرن الخامس الهجري، وتنقسم إلى طورين هما طور الإمارة وطور الخلافة .

وأما العصر الثالث فيتمثل في عصر ملوك الطوائف الذي بدأ عقب انهيار الخلافة الأموية بالأندلس ثم سقوطها في مطالع القرن الخامس، ويستمر حتى دخول الأندلس في طاعة يوسف بن تاشفين أمير دولة المرابطين بالمغرب في نهايات القرن الخامس وتحديداً في عام ٤٨٧ هـ . وقد انقسمت الأندلس خلال عصر الطوائف إلى عدد كبير من الإمارات المستقلة، توزعت بين عدد من الأسر التي تنتمي إلى أعراق وأجناس مختلفة عربية أو بربرية أو صقلبية، وكان من أشهرهم بنو جهور بقرطبة وبنو عباد بأشبيلية وبنو زيري بغرناطة وبني ذي النون بطليطلة .

وقد تميز هذا العصر الأخير بوصول العصبيات القبلية والعرقية وإلى أقصى مدى لها، ووضح تأثيرها في لشعر بدرجة غير مسبوقة .

وقد التزمت في عرض موضوع هذا البحث تلك المراحل الزمنية الثلاث لإبراز مدى التفاعل بين طبيعة الحياة السياسية والاجتماعية في عصر منها .

أولا: العصبية القبلية وأثرها في عهد الولاة[1]

تألفت الأمة العربية منذ أقدم عصورها من شعبين يخالف كل منهما الآخر ويعاديه، **والشعب الأول:** منهما يرجع أصله إلى قحطان، واعتاد النسابون على تسمية هذا الشعب باليمن أو اليمنية، نسبة إلى أكثر أقاليم جنوب شبه الجزيرة العربية رخاءً .

والشعب الآخر: ينتسب إلى عدنان، أحد حفدة سيدنا إسماعيل عليه السلام، والذي سكن منطقة الحجاز الممتدة من فلسطين حتى اليمن بما فيها مكة والمدينة ونجد، واعتاد النسابون أيضاً على تسمية هذا الشعب بعدنان، أو معد، أو نزار، وكلها أسماء تدل على شعب واحد[2]، وكان العداء دائماً ينشب بين الشعبين لأتفه الأسباب[3]، كما كان ميل الخلفاء وبخاصة الأمويون لأحد الفريقين وتعصبهم له من أسباب هذا العداء .

---

(١) هؤلاء الولاة هم: طارق بن زياد (٧١٠ – ٧١٠م)، وموسى بن نصير:(٧١١ – ٧١٣م)، وعبد العزيز بن موسى (٧١٣ – ٧١٥م) ، وأيوب بن حبيب (٧١٥ – ٧١٥م) ، والحر بن عبد الرحمن (٧١٥ – ٧١٣م) ، والسمح بن مالك (٧١٨ – ٧٢٠م) ، وكذا عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي(٧٢١ – ٧٢١م)، وعنبسة بن سحيم (٧٢١ – ٧٢٥) ، وعذرة بن عبد الله الفهري(٧٢٥ – ٧٢٥م)، ويحيى بن سلمة الكلبي (٧٢٥ – ٧٢٨م)، وحذيفة بن الأحوص (٧٢٨ – ٧٢٨م) ، وعثمان بن أبي نسعة (٧٢٨ –٧٢٩م) ، والهيثم بن عبيد (٧٢٩ –٧٢٩م) ، ومحمد بن عبد الله الأشجعي (٧٢٩ – ٧٣٠م) ، وعبد الرحمن الغافقي للمرة الثانية(٧٣٠ – ٧٣٢م)، وعبد الله بن قطن(٧٣٢ – ٧٣٤م)، وعقبة بن حجاج (٧٣٤ – ٧٤٠م) ، وعبد الملك بن قطن المرة الثانية (٧٤٠ – ٧٤٠م)، وبلج بن بشر (٧٤٠ – ٧٤١م) ، وثعلبة بن سلمة العاملي (٧٤١ – ٧٤٢م) ، وأبو الخطار حسام بن ضرار (٧٤٢ – ٧٤٤م) ، وثوابة بن سلمة (٧٤٤ – ٧٤٦م) ، وعبد الرحمن بن كثير (٧٤٦ – ٧٤٦م) ، ويوسف الفهري (٧٤٦ – ٧٥٥م) .

(٢) راجع في ذلك ما يتعلق بالقحطانية والقيسية . دائرة المعارف الإسلامية نشر فيشر وكذا ابن حزم : جمهرة أنساب العرب .

(٣) راجع في ذلك تاريخ أبي الفدا:٢ /٦٤، المبرد: الكامل في اللغة والأدب:١/ ١٩١، وكذا ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب ٢ / ٨٤، تحقيق ج . س . كولان، و إ .ليفي بروفنسال، طبعة دار الثقافة، بيروت، وكذا المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين) : مروج الذهب ومعادن الجوهر ٣ / ٢٤١، ٢٤٢، تحقيق وتعليق سعيد محمد اللحام، الطبعة الأولى، طبعة دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، سنة ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م .

وانصرم القرن الأول وهبت كوامن العصبية والنضال من مرقدها، وعادت تعصف بوحدة المجتمع الإسلامي وكيانه، وخاصة في الأقطار النائية التي افتتحتها الجيوش الإسلامية، ودخلها الإسلام ومنها الأندلس، على الرغم من انضواء الجميع تحت ظلال راية الإسلام، فازداد الخلاف وتتطاولت الخصومة .

يرجع الفضل في فتح الأندلس إلى موسى بن نصير والي إفريقية الذي كان يتعصب لليمنية، ومن ثم لم يلق الرعاية الكاملة من خليفة دمشق الوليد بن يزيد الذي كان يميل للقيسية، ففر موسى إلى عبد العزيز بن مروان والي مصر الذي التمس له حماية مولاه، ثم استعمله بعد ذلك والياً على إفريقية .

ولقد كان عبد العزيز بن موسى أول والٍ للأندلس ينتمي إلى اليمنية، ثم تعددت الولاة من بعده، وكان معظمهم في الغالب ينتمي إلى اليمنية، حتى جاءت سنة ١١١هـ عندما أرسل عبيدة القيسي والي إفريقية الهيثم القيسي والياً على الأندلس، عندئذ تذمر اليمنيون، وخالفوا أوامر الوالي الجديد، لذا قام الهيثم القيسي بطرح معظمهم في السجن، وسامهم صنوفاً من العذاب، وكان من ضحاياه يمني، من قبيلة كلب، رفيع المنزلة، يُدْعَى « سعد بن جواس »، والذي سوف ينتقم له أبو الخطار[١]، والي الأندلس فيما بعد، وكان يمنياً مثل سعد، فانتقم له من القيسيين بقتل عدد من زعمائهم وعبر عن ذلك بقوله[٢] :

فَلَيْتَ ابْنَ جَوَّاسٍ يُخَبَّرُ أَنَّنِي ... سَعَيْتُ بِهِ سَعْيَ امْرِئٍ غَيْرِ عَاقِلِ
قَتَلْتُ بِهِ تِسْعِينَ تَحْسَبُ أَنَّهُمْ ... جُذُوعُ نَخِيلٍ صُرِّعَتْ بِالْمَسَائِلِ

---

(١) أبو الخطار : هو الحسام بن ضرار بن سلمان بن خيثم بن عجول بن ربيعة بن حصن بن ضمضم بن عدي بن جناب، شاعر، فارس، راجع في ذلك الضبي(أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة . ت ٥٩٩ هـ) : بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس ص ٢٧٦ طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ٢٠٠٨م .

(٢) ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب ٢٦/٢، تحقيق ج.س. كولان، و إ .ليفي بروفنسال، طبعة دار الثقافة، بيروت ، **وكذا** الضبي: بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس ص ٢٧٦ طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ٢٠٠٨م .

وَلَــوْكَانَــتِ الْمَــوْتَى تُبَــاعُ اشْــتَرَيْتُهُ بِكَفِّــي وَمَــا اسْــتَثْنَيْتُ مِنْهَــا أَنَــامِلِي

ثم يأتي بعد الهيثم والٍ يمني هو عبد الرحمن الغافقي للمرة الثانية، في أواخر سنة ١١٢هـ، الذي قام بدوره بالقبض على الهيثم وكبله بالحديد، وأرسله إلى عبيدة والي إفريقية فلم يعاقبه؛ لأنه كان ينفذ أوامره، فقد كان الاثنان ينتميان إلى قبيلة واحدة هي قيس .

كان تعيين عبد الرحمن الغافقي من قبل الخليفة ليرضي الكلبيين، ولكن موت سعد بن جواس كان دائماً يثير حماستهم، وخاصة إذا علمنا أن الخليفة هشام كان يميل إلى القيسية، ومن ثم خاب ظن الكلبيين، فنظم القصيدة التالية واحد من أشهر زعمائهم هو أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي، وكان صديقاً لسعد ابن جواس، فعبر فيها عن حقده الدفين ضد عبيدة والقيسيين بصفة عامة، يقول ابن الأبار مؤرخاً لذلك « قال أبو الخطار هذا الشعر، لأن هشام بن عبد الملك ولَّى عُبيدة بن عبد الرحمن – ابن أخي الأعور السُّلَمِيِّ صاحب خيل معاوية بصفين – إفريقية، وصرف بشر بن حنظلة الكلبي، فوجدت لذلك اليمانية »[١] فبعث بها إلى الخليفة قائلاً : [٢]

أَفَــأَتُم بَنِــي مَــرْوَانَ قَيْــسَاً دِمَاءَنَــا وَفِي اللهِ –إِنْ لَـمْ تُنْـصِفُوا –حَكَـمٌ عَـدْلُ
كَــأَنَّكُمْ لَــمْ تَــشْهَدُوا مَــرْجَ رَاهِــطٍ وَلَمْ تَعْلَمُـوا مَـنْ كَـانَ ثَـمَّ لَـهُ الْفَـضْلُ
وَقَيْنَــاكُمْ حَــرَّ الْقَنَــا بِنُحُورِنَــا وَلَــيْسَ لَكُــمْ خَيْــلٌ سِــوَانَا وَلاَ رَجْــلُ
فَلَمَّــا بَلَغْــتُمْ نَيْــلَ مَــا قَــدْ أَرَدْتُــمُ وَطَــابَ لَكُــمْ مِنَّــا الْمَــشَارِبُ وَالأَكْــلُ
تَعَــامَيْتُمُ عَنَّــا بِعَــيْنٍ جَلِيَّــةٍ وَأَنْـتُمْ كَـذَا مَـا قَـدْ عَلِمْنَـا لَهَـا فُعْـلُ
فَــلاَ تَــأْمَنوا إِنْ دَارَتِ الْحَــرْبُ دَوْرَةً وَزَلَّــتْ عَــنِ الْمَرْقَــاةِ بِالْقَــدَمِ النَّعْــلُ

(١) ابن الأبار (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي . ت ٦٥٨هـ) : الحلة السيراء ١ / ٦٤، ٦٥ حققه وعلق حواشيه الدكتور حسين مؤنس، الطبعة الثانية، طبعة دار المعارف، سنة ١٩٨٥م .

(٢) المصدر السابق : الموضع نفسه، وكذا الضبي (أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة . ت ٥٩٩ هـ) : بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس ص ٢٧٧، مصدر سابق.

فَيَنْتَقِضُ الْحَبْلُ الَّذِي قَدْ فَتَلْتُمُ أَلاَ رُبَّمَا يُلْوَى فَيَنْتَفِضُ الْحَبْلُ

يريد جعلتم يا بني مروان دماءنا فيئاً ومغنماً لقيس، وقد تناسيتم ما كان في مرج راهط[1] من نصرة الكلبيين للمروانيين، وتحملهم أقسى ألوان الحرب، فلما تبوَّأتم مقعد الخلافة تغافلتم عن الخدمات التي قدمت لكم، وهذا لن يحدث مرة أخرى عندما تحتاجون إلى الكلبيين ونصرتهم .

وذكر الطبري أن أبا الخطار قال : « هذا الشعر يِ ُعَرِّضُ فيه بيوم مرج راهط، وما كان من بلائه مع مروان بن الحكم وقيام القيسية مع الضحاك بن قيس الفهري على مروان، وأن شعره هذا قد بلغ هشام بن عبد الملك، فسأل عنه فَأُعْلِمَ أنه رجلٌ من كلب، فكتب إلى حنظلة بن صفوان، وقد ولاَّه أفْريقية في سنة أربع وعشرين ومائة، أن يولي أبا الخطار الأندلس، فدخل قرطبة يوم جمعة، وألفى ثعلبة بن سلامة وإليها قد أبرز ألف أسير من البربر كان قد أسرهم ليقتلهم، والناس قد تجمعوا لمشاهدة ذلك فكان دخول أبى الخطار .. لاستحيائهم، فرفع إليه ثعلبة الأسرى، وتخلى له عن الأسرى، وخرج ثعلبة متوجهاً إلى المشرق في يومه ذلك » . [2]

ومن النماذج التي تبرز لنا العصبية القبلية أيضاً ما أورده لنا ابن الأبار بقوله : « قال أبو الخطار يخاطب الصميل بن حاتم الكلابي ، رئيس المضرية ورأس المتعصبين معها على اليمنية في ولاية يوسف بن عبد الرحمن الفهري : [3]

---

(١) عن هذه المعركة راجع : المسعودي : مروج الذهب ٥ /٢٠٠ .

(٢) **ابن الأبار** (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي . ت ٦٥٨هـ) : الحلة السيراء ١ / ٦٤، ٦٥ حققه وعلق حواشيه الدكتور حسين مؤنس، الطبعة الثانية، طبعة دار المعارف، سنة ١٩٨٥م، وكذا الضبي (أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة .ت٥٩٩هـ) : بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس **ص** ٢٧٧، ٢٧٨ .

(٣) **ابن الأبار** (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي . ت ٦٥٨هـ) : الحلة السيراء ١ / ٦٥ ، ٦٦ حققه وعلق حواشيه الدكتور حسين مؤنس .

إِنَّ ابْـنَ بَكْـرٍ كَفَـانِي كُـلَّ مُعْـضِلَةٍ وَحَـطَّ عَـنْ غَـارِبِي مَـا كَـانَ يُـؤْذِينِي

إِذَا اتَّخَـذْتَ صَـدِيقاً أَوْ هَمَمْـتَ بِـهِ فَاعْمَـدْ لِـذِي حَـسَبٍ إِنْ شِـئْتَ أَوْ دِيـنِ

مَا يُقَدِّرُ اللهُ فِي مَالِي وَ فِـي وَلَـدِي لاَ بُـدَّ يُـدْرِكُنِي لَـوْ كُنْـتُ بِالـصِّينِ

وعهد أبو الخطار إلى الأبرش الكلبي – كاتب هشام – تلاوة هذه الأبيات أمام الخليفة، وكان للخوف من الحرب الأهلية وقع شديد في نفس الخليفة الذي أعلن لتوه خلع عبيدة قائلاً بغضب مفتعل : « قبَّح الله ابن النصرانية هذا الذي لم يطع أوامري »[1]، وأمر بتعيين ولاية إفريقية إلى رجل من قيس هو عبيد الله الذي ولى بدوره عقبة بن الحجاج على الأندلس الذي أرغم على أن يعهد بالولاية من بعده لعبد الملك بن قطن الفهري الذي كان والياً على الأندلس قبل مجيء عقبة وكان قد أودعه السجن .

توالى الولاة فيما بعد، وكان بعضهم قيسياً والآخر يمنياً، حتى جاء آخر الولاة وهو يوسف الفهري أيده الصميل بن حاتم، على رأس القيسيين وتقابل مع اليمنيين في « شقندة »، واشتعلت المعركة وازداد لهيبها من الصباح حتى المساء، وانتهت بانتصار القيسيين وهزيمة اليمنيين وأسر قائدهم أبي الخطار [2].

لم يعد ليوسف بعد هذه المعركة منافس، ولكنه كان يكره استئثار الصميل بالأمر فأقطعه أرضاً في كورة سرقسطة فرضي الصميل، وهدأت الأمور بعض الوقت حتى قام عامر العبدري – مستغلاً غضب كثير من

(١) دوزي (رينهرت) :تاريخ مسلمى إسبانيا ١ / ١٣٧ ترجمة حسن حبشي، طبعة المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر .

(٢) راجع في ذلك أخبار مجموعة في فتح الأندلس : مؤلف مجهول ص ٢٩، مدريد سنة ١٨٦٧م .

اليمنيين – بثورة ضد يوسف زاعماً أن الخليفة العباسي قد ولاه حكومة الأندلس، واتحد مع الحباب بن رواحة الكلابي ضد الصميل ويوسف، وهزموا قواتهم وحاصروهم في سرقسطة سنة ١٣٦هـ، وسنة ١٣٧هـ، إلاَّ أن القيسيين تجمعوا وساروا نحو طليطلة، وكان حصار الثوار اليمنيين للقيسيين على أشده، فأراد القيسيون أن يبلغوا إخوانهم بدُنُوِّهِم فأرسلوا أحدهم إلى سرقسطة طالبين إليه أن يندس بين المحاصرين، وأن يرمي من على السور ورقة مطوية على حصاة، بها هذان البيتان : (١)

تَبَشَّرْ بِالسَّلاَمَةِ يَا جِدَارُ ... أَتَاكَ الْغَوْثُ وَانْقَطَعَ الْحِصَارُ

أَتَتْكَ بَنَاتُ أَعْوَجَ مُلْجِمَاتٌ ... عَلَيْهَا الأَكْرَمُونَ وَهُمْ نِزَارُ

فقرأها الجند على الصميل الذي أثار حماسة جنده وأخبرهم بالنبأ الجديد الذي تلقاه فرفع الحصار، ودخل القيسيون المدينة فشكرهم الصميل .

ولعل من أوضح الظواهر القديمة التي استمرت في قصيدة المدح التقليدي بالأندلس شخصية الممدوح موضوع المدح لهذه الشخصية بطائفة من ملامحها القديمة بسبب من تعلق الشعراء في مدحهم بكثير من القيم والفضائل التي يثنى بها على الممدوح في القصيدة التراثية كالشجاعة والكرم وصراحة النسب والمجدة والأخذ بالثأر وما إليها، فأبو الأجرب جعونة (*) بن الصمة الكلابي مدح الصميل بن حاتم أحد رجالات القيسية بالأندلس في القرن الثاني فقال : (٣)

بَنَى لَكَ حَاتِمٌ بَيْتاً رَفِيعاً ... رَأَيْنَاهُ عَلَى عُمُدٍ طُوالِ

---

(١)ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب١/٤١-٤٣، تحقيق ج.س. كولان، و إ .ليفي بروفنسال، طبعة دار الثقافة، بيروت . **وكذا** الضبي: بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس ص ٢٧٦ طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ٢٠٠٨م .

(*) أخباره فى الجذوة ١/٧-١٨٧ ، المغرب : ١/١٣١-١٣٢ .

(٣)ابن الخطيب (لسان الدين، ذو الوزارتين) الإحاطة فى أخبار غرناطة ٣/٣٤٧ تحقيق محمد عبد الله عنان، نشر مكتبة الخانجى الطبعة الرابعة ١٤٢١هـ/٢٠٠١ م القاهرة .

وَقَــدْ كَــانَ ابْتَنَــى شِــمْرٌ وَعَمْــرٌو بَيُوتَــاً غَيْــرَ ضَــاحِيَةِ الظِّــلاَلِ
فَأَنْــتَ ابــنُ المَكَــارِمِ مِــنْ مَعَــدٍ بِمُعْــتَلِجِ الأَبَــاطِحِ والرِّمَــالِ

وإذا تأملنا الأبيات السابقة نجد الشاعر قد مدح الصميل بعراقة نسبه وركم أرومته وشرف بيته، ولا يفوته أن يذكر جدوده الذين أورثوه السؤدد والمجد شأن الشعراء الأوائل حين يمدحون، لاعتقادهم بانتقال المجد والشرف من الآباء إلى الأبناء يقول القاضي الجرجاني: «إنما طريقة المدح أن يجعل الممدوح شرف بآبائه والآباء تزداد شرفاً به، فيجعل لكل منهم فى الفخر حظاً، وفي المدح نصيباً، فإذا حصلت الحقائق كان النصيبان مقسومين عليهم، بكل كان لكل فريق منهم، لأن شرف الواحد جزء من ميراثه، ومنتقل إلى ولده، كانتقال حاله، فإن روعي وحرس ثبت وازداد وإن أهمل وأضيع هلك وباد، وكذلك شرف الولد، يعم القبيلة، وللوالد منه القسم الأوفر»[1].

ولم يفت الشاعر أيضاً أن يتحدث عن قوة ممدوحه وفروسيته كما هو واضح في البيت الثالث، وتتجلى لنا السمات الفردية لشخصية الممدوح النمطية أكثر مما تقدم في النموذج التالي لأبي الأجرب أيضاً يمدح فيه الصميل[2]:

دُونَ الــصُّمَيلِ شَــرِيعَةٌ مَــوْرُودَةٌ لاَ يَــسْتَطِيعُ لَهَــا العَــدُوُّ وُرُوداً
فُــتَّ الــوَرَى وَجَمَعْــتَ أَشْــتَاتَ العُــلاَ وَحَوَيْــتَ مَجْــداً لاَ يَنَــالُ وُجُــوداً
فَــإِذَا هَلَلْــتَ فَــلاَ تَحَمَّــلَ فَــارِسٌ سَــيْفَاً وَلاَ حَمَــلَ النِّــسَاءُ وَلِيْــداً

(١) الجرجاني (القاضي عبد العزيز) : الوساطة بين المتنبي وخصومه ص ٢٨٣-٢٨٤ ت على البجاوى مطبعة عيسى البابي الحلبي وأولاده .

(٢) ابن الخطيب (لسان الدين ، ذو الوزارتين) : الإحاطة في أخبار غرناطة ٣ / ٣٤٧ ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، نشر مكتبة الخانجي ، الطبعة الرابعة ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م .

فالممدوح لا يبارى في شرفه، فقد حوي المجد كله، وفاق الأنام طراً في قوته وشجاعته وإقدامه، فليس لفارس بعده أن يحمل سيفاً ولا لامرأة أن تضع وليداً، إذ لا يمكن أن ينجب مثله، إذا هلك لزياد عن حوض القوم، وهو إلى ذلك رجل جواد كريم شديد النكاية في الأعداء، فهم يرهبونه ويخشون سطوته، وتمسكت القصيدة بمثل هذه الفضائل التي فيها الثناء بقوة وسطوة الممدوح وشجاعته عند مدح القادة والفرسان خاصة .

أما عن ملامح التجديد في المديح القبلي فإننا نجد الشعراء في موضوع المديح تجاوبوا مع بيئتهم فتلون شعرهم في بعض نواحيه بملامح البيئة الأندلسية، فإذا تأملنا قصائدهم في المدح من حيث المنهج وجدنا بعضها قد استلهم المعاني المألوفة في المدح القديم، بما يتناسب والمدح القبلي.

وما نلاحظه على هذا القسم أن التجديد فيه كان في الموضوع فحسب ، أما بعد ذلك فإنه بقي متأثراً بالصور والأخيلة ، فاهتمت بتصوير شجاعة الممدوح وجوده الواسع، وبالتحدث عن مجده، وحلمه، ووفائه وشجاعته، فهو في الهيجاء بطل مغوار لا يبارى، فعزيمته هي البرق وصولته هي خطفاته ، أما عطاياه فإنها بعدد جنوده ويده التي تسقي الأعداء كأس المنون هي عينها التي تغدق على الناس بالعطايا الوفيرة . فيد الممدوح إذاً أضحت جماعاً لصفتين ،تمنح الحياة بعطاياها وتسقي الموت بسيفها ، وهذا الأسلوب الذي يمنح صفتين متناقضتين للشيء الواحد ، أسلوب ظهر واضحاً في شعر أبي تمام وكان يسميه "نوافر الأضداد " لكنه عند أبي تمام كان أكثر تعقيداً وفلسفة ،أما في المدح التقليدي بالأندلس فإنه لم يبلغ ما بلغه من تعقيد فلسفي عند أبي تمام ولم يصبح اتجاهاً عاماً كما هو الأمر عنده .

وثمة نموذج آخر يمثل شعر العصبية القبلية في هذه الآونة يورده لنا ابن الأبار بقوله :« قدم من مصر على عبد الرحمن بن معاوية في سنة ١٤٠هـ أول

ولايته بالأندلس : وهو في عشرة رجال من بنيه فرسان ، فولاه إشبيلية ، وولى ابنه عبد الله مورور ،وأغنى في حرب يوسف بن عبد الرحمن الفهري عند نكثه وفراره من قرطبة حتى قتلى .

وقيل : كان والياً على ماردة وابنه على لقنت ، ولما زحف أهل حمص على عبد الرحمن بن معاوية يطلبونه بثأر أبي الصباح اليحصبي وكان قد طاح على يديه أبلى عبد الملك هذا بلاءً حسناً ، وقتلى ابنه أمية صبراً لما انحاز إليه منهزماً : قدمه فضرب عنقه ، فهابه الجند وشدوا معه ومع سائر بنيه ، فكانت الدبرة على أهل حمص ومن معهم ، وفتح الله على يديه فتحاً لا كفاء له ، وأجلت الحرب عنه جريحاً فأحظاه عبد الرحمن ، وقيل : بل قتل ابنه المذكور في حرب يوسف الفهري حين انهزم وقتل من أصحابه نحو عشرة آلاف ، ولم تقم له بعد قائمة ، فأحظاه عبد الرحمن وقدمه واستوزر بنيه عبد الله وإبراهيم وحكماً ، وزوج ابنته كنزة من ابنه هشام ولي عهده ، فقال عبد الملك في ذلك من قصيدة طويلة : (١)

فَيَا زَمَناً أَوْدَى بِأَهْلِي وَمَعْشَرِي ... لقد صِرْتَ فِي أحشائنا لاذعاً جمراً

ويزدادُ دهرُ السُّوءِ غِشَّاً وَظُلْمَةً ... كَأَنَّ عَلَى شَمْسِ الضُّحَى دُونَنَا سِتْرَا

إِلَى أَنْ بَدَا مِنْ آلِ مَرْوَانَ مُقْمِرٌ ... أَضَاءَ لَنَا مِنْ بَعْدِ ظُلْمَتِهِ الدَّهْرَا

هِجَانٌ أَصِيلُ الرَّأْيِ نَدْبٌ مُهَذَّبٌ ... أَقَامَ لَنَا مُلْكاً وَشَدَّ لَنَا أَزْرَا

(١) **ابن الأبار** (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي . ت ٦٥٨هـ) : الحلة السيراء ١ /٦٦ حققه وعلق حواشيه الدكتور حسين مؤنس .

وَأَنْبَتَ آمَالاً وَأَثْبَتَ نِعْمَةً وَجِئْنَا فَأَلْفَيْنَا الكَرَامَةَ وَ البِرَّا

آنَالَ وَ أَغْنَى مُنْعِمَاً مُتَفَضِّلاً وَ أَصْفَى لَنَا مَأْمُولَ أَبْنَائِهِ صِهْرَا

فَنَحْنُ حَوَالَيْهِ النُّجُومُ تَجَمَّعَتْ إِلَى البَدْرِ حَتَّى صِرنَ مِنْ حَوْلِهِ حَجَراً

في عهد عبد الرحمن الداخل الذي يمثل فاصلا بين عهدين ارتفعت رايات الثورة مرة أخرى في أشبيلية، فقد ثار أبو الصباح اليحصبي زعيم اليمنية في غرب الأندلس وكان أبو الصباح قد عزم على التخلص من عبد الرحمن بن معاوية عقب نجاح الأخير في دخول قصر قرطبة منتصراً عام ١٣٨هـ / ٧٥٦م، لولا أن ثعلبة بن عبيد الجذامي قدم على ابن معاوية، وأفضى إليه بتفاصيل المؤامرة، فاحتاط ابن معاوية لنفسه من أبي الصباح وأبعده عن قرطبة، ثم عهد إليه بولاية أشبيلية، ولكنه سرعان ما أقدم على عزله عن ولايتها عام ١٤٨هـ / ٧٦٦م، فاشتد الغضب بأبي الصباح، ودعا اليمنية إلى الثورة، فلما علم عبد الرحمن بن معاوية بذلك – وكان يدرك مركزه وسطوته على اليمنية – عمد إلى مفاوضته، وبعث إليه عبد الله بن خالد أحد زعماء موالي بني أمية يحمل إليه أماناً ويدعوه للمسير إلى قرطبة للتفاهم مع أميرها، فمضى أبو الصباح – على الرغم من معارضة أنصاره – إلى قرطبة بصحبة أربعمائة من فرسانه، فاستقبله ابن معاوية، وعاتبه على ما بدر منه، إلاَّ أن أبا الصباح أغلظ للأمير وأغضبه وتهدده، فاستل عبد الرحمن خنجراً وحاول قتله بيده، فلم يفلح، فاستعان بفتيانه الذين أجهزوا عليه، ثم طرح ملاءة على جثمانه، واهتم بإزالة آثار دمائه ثم استقدم إليه وزراءه، وأفضى إليهم بأن أبا الصباح أسير في قصره، واستشارهم في قتله، فلم يوافقوه، وقالوا له : «على الباب أربعمائة فارس وجند الأمير غائب، ولا نأمن أن يحدث من ذلك بلاءً » ولم يشذ عن إجماعهم سوى حبيب بن عبد الملك بن

عمر بن الوليد بن عبد الملك بن مروان الذي أشار عليه بقتله، وله في ذلك أبيات منها : (١)

يَـا بْـنَ الْخَلاَئـفِ إِنِّـي نَاصِـحٌ لَكُمُـو ... فِـي قَتْـلِ ذِي إِحَـنٍ يَرْتَـادُ لِلـنَّقَمِ

لاَ يَفْلِتَنْـــكَ فَيَأتِينَـــا بِبَائِقَـــةٍ ... أُشْـدُدْ يَـدَيْكَ بِـهِ تَبْـرَأْ مِـن السَّقَمِ

جَلِّلْـهُ عَـضْبَاً مِـنَ الْهِنْـدِيِّ ذَا شُـطَبٍ ... إِنَّ الـصَّرَامَةَ فِيـهِ فِعْلَـةُ الْكَـرَمِ

وإذ ذاك، أعلنهم عبد الرحمن بقتله، ثم أمر برأسه فأخرجاها إلى فرسانه، فتفرقوا وعادوا إلى بلادهم، ولكن عبد الله بن خالد استاء من مسلك الأمير الغادر، واستهجن هذه الخيانة التي كان هو أداة في إتمامها، فلزم بيته رافضاً أن يتقلد أي منصب من المناصب بل سينقلب على الأمير عبد الرحمن ابن معاوية ويصبح من أشد أعوان الخليفة العباسي .

وفي سنة ١٥٦هـ / ٧٧٣م عادت أشبيلية ترفع لواء الثورة على الإمارة الأموية طلباً للثأر لمقتل أبي الصباح بن يحيى اليحصبي، وكان على رأس الثورة (حيوة بن ملامس) زعيم أشبيلية، وكان حيوة من زعماء أشبيلية الذين رحبوا بمقدم عبد الرحمن بن معاوية، وخرج لاستقباله عند قدومه إلى أشبيلية، وكانت له منزلة كبيرة في قلب ابن معاوية حتى قال فيه : (٢)

فَـلاَ خَيْـرَ فِـي الـدُّنْيَا وَلاَ فِي نَعِيمِهَـا ... إِذَا غَـابَ عَنْهَـا حَيْـوَةُ بْـنُ مُلاَمِـسِ

أَخُو السَّيْفِ قَارِي الضَّيْفِ حَقّاً يَرَاهُمَا ... عَلَيْـهِ وَنَـافِي الضَّيْمِ عَـنْ كُـلِّ بَـائِسِ

ولكن الخلاف لم يلبث أن دب بين الرجلين، وتحول الود القائم إلى عداء سافر، فسار حيوة بن ملامس عام ١٤٥هـ /٧٦٢م، وتغلب على مدينتي أشبيلية

(١) ابن الأبار:الحلة السيراء،تحقيق الدكتور حسين مؤنس، ٥٩/١، وكذا دوزي (رينهرت) :تاريخ مسلمى إسبانيا ١ / ١٣٧ ترجمة حسن حبشي، طبعة المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر .

(٢) ابن الأبار:الحلة السيراء،تحقيق الدكتور حسين مؤنس، ٥٩/١، وكذا دوزي (رينهرت) :تاريخ مسلمى إسبانيا ١ / ١٣٧ ترجمة حسن حبشي، طبعة المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر.

واستجة وأكثر أقاليم غرب الأندلس، فخرج إليه الأمير عبد الرحمن وقاتله قتالاً عنيفاً بضعة أيام، وكاد عبد الرحمن أن يفر أول الأمر، ولكنه ما لبث أن ثبت حتى ملك ناصية القتال، فانهزم حيوة بن ملامس وأصحابه من اليمنية، وهرب إلى ناحية فريش شمالي قرطبة، ومن هناك أرسل إلى الرحمن
بن معاوية يسأله العفو عنه .

ولكن إقدام عبد الرحمن على قتال أبى الصباح كان السبب المباشر في عودة حيوة بن ملامس إلى الثورة مرة أخرى متحالفاً مع عبد الغافر اليحصبي صاحب « باجة »، وانضم إليهما عمر بن طالوت صاحب« ليلة » وكان من أبناء عمومة أبى الصباح، كما انضم إليهم جموع كبيرة من البربر، وأجمعت هذه القوات على السير إلى قرطبة منتهزين غياب عبد الرحمن بن معاوية عنها، إذ كان قد خرج لمواجهة ثورة خطيرة اندلعت في شمال شرق الأندلس بزعامة رجل بربري يدعى شقياً بن عبد الواحد، وكان عبد الرحمن قد استخلف على قرطبة، وقدم ابن عمه عبد الملك بن عمر المرواني لقتالهم فخرج على رأس جيش يتقدمه ولده أمية واشتبك أمية مع طلائع اليمنية فلما وجد فيهم قوة ِأْثر الانسحاب إلى أبية فسأله عبد الملك : « ما حملك على أن استخففت بي وجرأت الناس علىَّ والعدو ؟ إن كنت قد فررت من الموت، فقد جئت إليه »، فأمر بضرب عنقه، وجمع أهل بيته وخاصته وقال لهم: « طردنا من الشرق إلى أقصى هذا الصقع، ونحسد على لقمة تبقى الرمق، اكسروا جفون السيوف فالموت أولى أو الظفر ». ففعلوا ما أمرهم به، وتقدموا وأحرزوا النصر على اليمنية، وأهل أشبيلية، وقتل حيوة بن ملامس، وأفلت عبد الغافر وركب البحر إلى المشرق، وفي العام التالي (١٥٧هـ -٧٤٤م) سار الأمير عبد الرحمن بن معاوية بنفسه إلى أشبيلية، ودخلها، وقتل عدداً كبيراً من أتباع حيوة بن ملامس، ونجح في فرض طاعته على أهلها .

ثانيا: العصبية القبلية والعرقية في عهد الإمارة

بدخول عبد الرحمن الداخل الأندلس بدأ طور جديد في الحياة السياسية الأندلسية هو طور الإمارة، استقلت به الأندلس عن التبعية للمشرق، إلا إن الأمور لم تهدأ بها بسبب العصبيات القبلية والعرقية، فقد ظل عبد الرحمن في كفاح مستمر طوال فترة إمارته ضد الثوار الخارجين عليه، فما يكاد ينتهي من معركة حتى يخوض أخرى، ولا يقضى على ثورة حتى تقوم ثورة أخرى، ولذلك كانت الأندلس في عهده بؤرة مليئة بضرام الحرب والثورات والمؤامرات ولكنه صمد ضد جميع الخارجين عليه وبخاصة الذين كانوا ينازعونه في الرياسة، واستطاع هو وابنه هشام وحفيدة الحكم أن يؤسسوا إمارة مستقلة ضد جميع الثوار الخارجين عليهم .

ولعل من أهم الثورات التي قامت ضد عبد الرحمن واتخذت صبغة قبلية وجنسية الثورة الفهرية الممثلة في يوسف وأبنائه والصميل بن حاتم، وكذلك ثورة أبى الصباح بن يحيى اليحصبي اليمنية بأشبيلية، وثورة شقيا بن عبد الواحد البربري في شنت برية والمدعى أنه من ولد فاطمة، وثورتا العلاء بن مغيث اليحصبي وعبد الرحمن بن حبيب الصقلبى ودعوتهما للعباسيين، وثورة عبد الغافر اليمنى وحيوه بن ملامس الحضرمي، وثورة سليمان بن يقظان الكلبي (الأعرابي) والى برشلونة، وثورة الحسين بن يحيى الأنصاري والى سرقسطة، وغيرها من الثورات الأخرى .[1]

ثم جاء هشام وتولى الإمارة بعد أبيه، ويعهد منه، وكانت تولية هشام بمثابة إنذار لنشوب ثورات جديدة، وخاصة أن هشام لم يكن أكبر أبناء عبد الرحمن، وإنما كان أكبرهم سليمان والى طليطلة والذي قام بثورة ضد أخيه

(١) راجع في الثوار الخارجين على الداخل: ابن عذارى المراكشي:البيان المغرب ٢/ ٤٨، ٥٨، تحقيق ج . س . كولان، و إ .ليفي بروفنسال، طبعة دار الثقافة، بيروت .

بعد أن تحالف مع أخيه الثاني عبد الله البلنسي وأعلنا العصيان والتمرد .

ولم تكن ثورة الأخوين (سليمان وعبد الله) هي الوحيدة في عهد هشام، بل كانت هناك ثورات أخرى في الشمال، منها ثورة سعيد بن الحسين الأنصاري بطرطوشة، وثورة مطروح بن سليمان بن يقظان ببرشلونة [١]،

ولكن الأمير هشاماً استطاع أن يكبح هؤلاء الثوار، وفي عهدة ساد الأمن والاستقرار ربوع الأندلس بالرغم من وقوع بعض الثورات المحلية السابقة الذكر، كما قوى في عصره نفوذ الفقهاء ورجال الدين، وتدخلوا في شئون الدولة مما ترتب علية . بعد ذلك . نتائج سياسية خطيرة [٢] .

وبعد هشام تولى الإمارة ولده الحكم، وما كاد يجلس على العرش حتى عمت الثورات كثيرا من ربوع الأندلس، ومن أهمها ثورة عميه سليمان وعبد الله البلنسي، وكذلك ثورة بهلول بن مروان بالثغر الأعلى، وكثر الثوار في مدينة وشقة ومارد وطليطة وغيرها [٣] .

أما أكبر ثورة حدثت في عهد الحكم فكانت ثورة الربض، ونظراً لأهميتها نخصها بالصفحات التالية :

(١) ثورة الربض

ثورة الربض هي أهم حدث سياسي في عهد الحكم كان له أثره في الناحية الأدبية، وثورة الربض لم تكن في الحقيقة ثورة واحدة وإنما كانت ثورتين؛ الأولى : حدثت سنة ١٨٩هـ، إثر تآمر الفقهاء والأعيان ضد الحكم، واتفقوا على خلعه لمَّا

(١) ابن عذارى المراكشي:البيان المغرب ٦٤/٢،٦٦، تحقيق ج . س. كولان، و إ .ليفي بروفنسال، طبعة دار الثقافة، بيروت .

(٢) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٢٢٨/١الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب ٦٨/٢ .٧٠ .

ضَيَّق عليهم، وقضى على نفوذهم الذي حظوا به أيام والده هشام، وعندما اكتشف الحكم هذه المؤامرة، قبض على كثير من هؤلاء المتآمرين، واستعمل فيهم سيفه حتى أنه أعدم اثنين وسبعين رجلاً منهم، وكان هذا العمل القاسي من شأنه أن يثير الخاصة والعامة، ولكن الحكم وقف ضد جميع الثائرين بالمرصاد .(١)

أما الثورة الثانية : والتي نعنيها، ونهتم بها سياسياً وأدبياً، فقد كانت عام ٢٠٢هـ، ولقد ظل الشعب الأندلسي ما بين الثورتين من أعوام يتمرد ويسخط ويعلن العصيان على الأمير، وينقم عليه لقسوته وطغيانه، وخاصة بعد تحريض كثير من الفقهاء الذين اضطهدهم الحكم من قبل، والأمير يقابل كل ذلك بقسوة وعنف وزيادة في العشور والضرائب، حتى كان الشعب يستعد في كل لحظة للوثوب على الأمير، وينتظر شرارة الثورة .

وحدث ما كان متوقعاً، واضطرمت نار الثورة، وذلك بعد مشادة بين أحد مماليك الحكم وصيقل من العامة أعطاه سيفه ليصقله فتباطأ الصيقل فقتله المملوك، ومن ثم ثار العامة، وحملوا سلاحهم وزحفوا نحو القصر، وكان أكثر هؤلاء الناس هياجاً هم أهل ربض قرطبة الجنوبي في الضفة الأخرى من النهر، وكاد الثوار يقتلون الحكم لولا أن أمر بإشعال النار في ربضهم، والذي كان يقطنه الصغار والشيوخ والنساء، ومن ثم هرع الثوار قافلين ليطفئوا النيران التي اشتعلت في دورهم لإنقاذ الأهل والولد، وفي تلك الأثناء احتاط الجنود بالثوار من كل جانب، وأمعنوا فيهم قتلاً وطرداً وأسراً، وبذلك تخلص

(١) ابن عذارى المراكشي:البيان المغرب ٢/٧١- ٧٥ تحقيق ج . س . كولان، و إ .ليفي بروفنسال، طبعة دار الثقافة، بيروت .

يقول الحكم مصوراً بطولته وانتصاره على هؤلاء الثائرين في موقعة الربض :(١)

رَأَيْتُ صُدُوعَ الأَرْضِ بِالسَّيْفِ رَاقِعَاً ... وَقِدْمَاً لأَمْتُ الشِّعْبَ مُذْ كُنْتُ يَافِعَا
فَسَائِلْ ثُغُورِي هَلْ بِهَا اليَوْمَ ثَغْرَةٌ ... أُبَادِرُهَا مُسْتَنْضِيَ السَّيْفَ دَارِعَا
وَشَافِهْ عَلَى الأَرْضِ الفَضَاءِ جَمَاجِمَاً ... كَأَقْحَافِ شِرْيَانِ الهَبِيدِ لَوَامِعَا
تُنَبِّئْكَ أَنِّي لَمْ أَكُنْ عَنْ قِرَاعِهِمْ ... بِوَانٍ وَأَنِّي كُنْتُ بِالسَّيْفِ قَارِعَا
وَأَنِّي إِذَا حَادُوا جُزَاعَاً مِنَ الرَّدَى ... فَلَمْ أَكُ ذَا حَيْدٍ مِنَ الْمَوْتِ جَازِعَا
حَمَيْتُ ذِمَارِي وَانْتَهَكْتُ ذِمَارَهُمْ ... وَمَنْ لاَ يُحَامِي ظَلَّ خَزْيَانَ ضَارِعَا
وَلَمَّا تَسَاقَيْنَا سِجَالَ حُرُوبِنَا ... سَقَيْنَاهُمْ سُمَّاً مِنَ الْمَوْتِ نَاقِعَا
وَهَلْ زِدْتُ أَنْ وَفَّيْتُهُمْ صَاعَ قَرْضِهِمْ ... فَوَافَوْا مَنَايَا قُدِّرَتْ وَ مَصَارِعَا
فَهَاكَ بِلاَدِي إِنَّنِي قَدْ تَرَكْتُهَا ... مِهَاداً وَلَمْ أَتْرُكْ عَلَيْهَا مُنَازِعَا

فالحكم بطل منذ صغره، قوي منذ نشأته، رأب صدع الثورات المحلية التي قامت ضده، وخاصة ثورة الربض هذه، فسد بسيفه كلَّ الثغرات في أرضه، حتى أن من تسول له نفسه غزو إمارته يُقْتل ويُلْقَى طريحاً على الأرض كأقحاف شجر الحنظل، ثم يقارن بينه وبين الخارجين عليه بعد أن سحقهم، فهم لم يصبروا على الضرب والنزال بينما هو ذو صبر كبير على ذلك، حتى أنه لم يتوانَ لحظة واحدة في إبادتهم، ثم يبرر ما فعله

(١) راجع هذه الأبيات لدى: ابن عذارى المراكشي:البيان المغرب ٢/٧٥-٧٧، وكذا ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب ٤٢/١ تحقيق الدكتور شوقي ضيف ،طبعة دار المعارف، وكذا مؤلف مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بها بينهم ص ١٢٠، تحقيق إبراهيم الإبياري، الطبعة الثانية، طبعة دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني،وكذا ابن عبد ربه:العقد الفريد ٤٩٢/٤ وكذا المقري(التلمساني) نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تحقيق الدكتور إحسان عباس٣٤٢/١.

بأنه ما كان إلاَّ حماية لأهله وولده وإمارته من هؤلاء المتمردين والثائرين الذين أخذوا حقهم وافياً حتى يكونوا عبرة لغيرهم .

وإذا أمعنا النظر في ثورة الربض نلاحظ أنها أُخْمدت مبكراً، ولعل ذلك يرجع إلى عدم تنظيمها وإدراجها تحت قائد يقودها، فهي ثورة يمكن أن نطلق عليها ثورة شعبية، ومن ثمَّ خاف الناس وهابوا الأمير وركنوا إلى السكينة والهدوء، وكان ذلك سبباً في إثارة مشاعر بعض الشعراء الذين كانوا ناقمين على الأمير وحكمه، فها هو الشاعر (غربيب بن عبد الله)[1] ينعي على أهل قرطبة الاستكانة والتواكل، ويحفزهم على الدفاع عن بلدهم، لأن في ذلك الرفعة والعز والكبرياء، أما التواكل ففيه الضعف والمذلة والهوان،

وقد جعلت وقعة الربض هذه أهل قرطبة أحاديث الناس في كل مكان بعد أن كانوا العون والسند لكل محتاج، وهكذا تتحول الأمور بفعل الأيام، يقول الشاعر غربيب الطليطلي: [2]

يَا أَهْلَ قُرْطُبَةَ الَّذِينَ تَوَاكَلُوا ... جِدُّ الدِّفَاعِ مِنَ التَّوَاكُلِ أَفْضَلُ

جَدُّ الدِّفَاعِ لَوَ أَنَّكُمْ دَافَعْتُمُ ... يَوْمَ الْهَيَاجِ لَكُمْ أَعَزُّ وَأَجْمَلُ

إِنَّ التَّوَاكُلَ وَهْنَةٌ وَمَذَلَّةٌ ... وَالْجِدُّ فِيهِ الصُّنْعُ وَالْمُتَسَهِّلُ

يَا أَهْلَ قُرْطُبَةَ الْمُبَاحَ حِمَاهُمُ ... أَوْرَثْتُمُونِي حَسْرَةً مَا تُحْمَلُ

---

(١) غربيب الطليطلي: شاعر قديم مشهور الطريقة في الفضل والخير وكان يستخف بعمال الدولة الأموية، راجع في ترجمته: الحميدي: جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس ص ٣٢٦ طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٨م، وكذا الضبي: بغية الملتمس ص ٤٤٢ طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٨م، وكذا ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب ٢٣/٢ تحقيق الدكتور شوقي ضيف، الطبعة الرابعة، دار المعارف – القاهرة، وكذا المقري (التلمساني): نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تحقيق الدكتور إحسان عباس ٦٥٩/٢.

(٢) حيان بن خلف بن حيان القرطبي (٣٧٧هـ -٤٦٩هـ): المقتبس – السفر الثاني ص١٧٤ تحقيق الدكتور/ محمود على مكي طبعة مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢ م

يَـا أَهْـلَ قُرْطُبَـةَ الْعَظِـيمَ بَلاؤُهُـمْ ... أَمْـسَيْتُ مِـنْ طُـولِ الأَسَـى مَـا أَعْقِـلُ
يَـا أَهْـلَ قُرْطُبَـةَ الطَّويـلَ نَعِـيمُهُمْ ... رَحَـلَ النَّعِـيمُ وَ بُؤْسُـكُمْ مَـا يَرْحَـلُ
يَـا أَهْـلَ قُرْطُبَـةَ الَّـذِينَ لِـذُلِّهِمْ ... أَهْـوَى لَـوَ انَّ التُّـرْبَ فَـوقِيَ يُجْعَـلُ
يَـا أَهْـلَ قُرْطُبَـةَ الَّـذِينَ لِـذُلِّهِمْ ... أَهْـوَى لَـوَ انِّـي لِلْمَنِيَّـةِ مَأْكَـلُ
يَـا أَهْـلَ قُرْطُبَـةَ الَّـذِينَ لِـذُلِّهِمْ ... أَمْـسَى طَوِيـلُ الْحُـزْنِ مَـا أَتَهَلَّـلُ
يَـا أَهْـلَ قُرْطُبَـةَ الَّـذِينَ لِمَـا لَقُـوا ... أَمْـسَتْ دُمُـوعُ الْعَـيْنِ مِنِّـي تُهْمِـلُ
صِـرْتُمْ أَحَادِيـثَ الْعِبَـادِ وَكُنْـتُمُ ... عَوْنَـاً لَهُـمْ فِـي كُـلِّ هَـمٍّ يَنْـزِلُ
فَـإِلَى الـذي مَلَـكَ الْمُلُـوكَ وعَـزَّهُمْ ... أَشْـكُو تَفَـرُّقَ شَـمْلِكُمْ وأُعَـوِّلُ
كَـمْ كَـانَ فِـيكُمْ مِـنْ صَـنُومٍ قَـائِمٍ ... تَـالٍ لِمَـا نَـصَّ النَّبِـيُّ الْمُرْسَـلُ
أَمْـسَى عَبِيـدُكُمُ الَّـذِينَ مَلَكْـتُمُ ... مَلَكُـوا عَلَـيْكُمْ وَالأُمُـورُ تُحَـوَّلُ
مَـاذَا خَـرَجْتُمْ عَنْـهُ أَوْ مَـا أَنْـتُمُ ... فِيـهِ تَعَـالَى اللهُ مَـاذَا يَفْعَـلُ
بَعْـدَ الْقُـصُورِ وَ بَعْـدَ عَـيْشٍ نَـاعِمٍ ... صِـرْتُمْ إِلَـى ذُلٍّ يُهِـينُ ويَـسْفُلُ
بَعْـدَ الـسُّرُورِ وَ بَعْـدَ أَمْـنٍ وَاسِـعٍ ... صِـرْتُمْ وَ أَنْـتُمْ لِلْمَنَايَـا مَنْهَـلُ
بَعْـدَ التَّجَمُّـعِ فِـي الْمَسَاجِدِ صِـرْتمُ ... مِزَقَـا فَمَنْعَـىً وآخَـرُ مُعْجَـلُ
أَمْـسَتْ مَـسَاجِدُكُمْ تَحِـنُّ إِلَـيْكُمُ ... وَاهَـاً كَمَـا حَـنَّ الْحَـزِينُ الْمُعْـوِلُ
عَطَّلْتُمُوهَـا بَعْـدَ طُـولِ عِمَـارَةٍ ... مَـنْ كَـانَ يَحْـسَبُ أَنَّهَـا سَـتُعَطَّلُ
فَقَـدَتْ تِـلاَوَةَ وَحْـيِ مَـنْ بُنِيَـتْ لَـهُ ... واللهُ يُجْبِـرُ أَهْلَهَـا وَ يُمَـوِّلُ
يَـا أَهْـلَ قُرْطُبَـةَ الْعَظِـيمَ بَلاؤُهُـمْ ... عُـوذُوا بِـرَبٍّ عَـادِلٍ لا يَغْفَـلُ
اللهُ أَبْلاَكُـمْ لِـيَعْلَمَ صَـبْرَكُمْ ... وَ اللهُ أَوْلَـى بِـالأُمُورِ وَ أَعْـدَلُ
يَـا رَبِّ قَـرِّبْ مِـنْ عَبِيـدِكَ رَحْمَـةً ... تُعْطِـيهُمُ مِنْـكَ الـذي قَـدْ أَمَّلُـوا

وَاكْشِفْ بِرُحْمَى مَا بِهِمْ وَاجْبُرْهُمُ مِنْ بَأْسِ عَبْدٍ بِالْغَوِيَّةِ يُعْجِلُ

وإذا تركنا عهد الحكم لننتقل إلى عهد الخليفة الذي ولي الأمر بعده، وهو عبد الرحمن الأوسط ومن أتى بعده نجد أن الثورات المحلية قد كثرت، والفتن الداخلية قد تنوعت، كالفتنة التي قامت في (تدمير) بين المضرية واليمنية ودامت سبع سنين[1]، وفتنة النصارى وأهل الذمة سنة ٢٠٧م، والثورة البربرية في ماردة[2]، وثورة هاشم في طليطلة سنة ٢٠٤هـ[3] وغيرها .

(٢) ثورات العرب بالأندلس

العرب هم العنصر الثاني من العناصر التي استوطنت الأندلس بعد البربر، إلا أنهم كانوا قبل البربر في الاستحواذ على المناصب الإدارية والنفوذ السياسي والاستحواذ على المناطق الساحلية مع تمتعهم بكل هذا كان لهم بعض الثورات المحلية والفتن والأحداث الداخلية تتصل بالعصبية تارة وضد حكومة قرطبة أو ضد المولدين الذين كانوا في صراع تارة أخرى .

وثورات العرب ضد حكومة قرطبة كانت أشد خطراً في أيام الأمير عبد الله بن محمد تلك الفترة التي انشقت فيها عصا الأندلس، وتمرد الكثيرون وثار في وجه الخلافة سواء من العرب أو المولدين أو غيرهما، وأشهر ثوار العرب ومضرمي نار الفتنة لهذا العهد اثنان :

---

(١) الدكتور حسين مؤنس : فجر الأندلس ص٣٦٢، ٣٦٣ دار المناهل للطباعة والنشر والتوزيع، والعصر الحديث للنشر والتوزيع .

(٢) المرجع السابق ص ٣٦٥ وما بعدها .

(٣) المرجع نفسه .

أما الأول فهو إبراهيم بن الحجاج اللخمي الذي تزعم الثورة في أشبيلية أيام الأمير عبد الله بعد أن وصل النزاع إلى أشده بين العرب والمولدين أولاً، ثم بين العرب أنفسهم ثانياً، وذلك بعد قتل إبراهيم بن حجاج كريب بن عثمان وأخاه خالداً واستأثر بحكم المدينة وحده، كما ضبط قرمونة أيضاً، ومن ثم ارتفع ذكره وبعد صيته فقصده الأدباء والشعراء ليمدحوه فأكرمهم وأجزل لهم العطاء، ويعد إبراهيم بن حجاج أول ثائر من العرب يستقل بحكم إقليم من الأقاليم ويجعل من نفسه أميراً يعطى ويمنع، ومن هؤلاء الشعراء ابن عبد ربه الذي مدحه بكثير من المدائح حيث يصف تنقله بين مدينتي أشبيلية وقرمونة في قصيدة له حسنة يقول فيها[1] :

أَلاَ إِنَّ إِبْـــرَاهِيمَ لُجَّـــةُ سَـــاحِلٍ ... مِـنَ الجُـودِ أَرْسَـتْ فَـوْقَ لُجَّـةِ سَـاحِلِ

فَإِشْبِيلِيَّةُ الزَّهْـرَاءُ تُزْهَـى بِمَجْـدِهِ ... وَقَرْمُونَـــةُ الغَـــرَّاءُ ذَاتُ الفَـــضَائِلِ

إِذَا مَـا تَجَلَّتْ تِلْـكَ مِنْ نُـورِ وَجْهِـهِ ... غَـدَتْ هَـذِهِ لِلنَّـاسِ فِـي زِيِّ عَاطِـلِ

وإِنْ حَـلَّ هَـذِى فَهْـوَ يُـوحِشُ هَـذِهِ ... فَتُهْـدِى بِرُسْـلٍ نَحْـوَهُ وَ رَسَـائِلِ

وكذلك القلفاط الشاعر الذي قصده من قرطبة إلى إشبيلية مبتغياً عطاياه فمدحه بنونيته المطولة ثم هجا فيها أهل قرطبة فمقته إبراهيم وحرمه وأساء ذكره، فانصرف القلفاط خائباً إلى قرطبة ولكنه هجا إبراهيم بقوله: [2]

لا تَـــذْكُرِي لِلْـــبَيْنَ طُـــولَ بُكَـــائِي ... فَـــالْبَيْنُ بَـــرَّحَ بِـــي وَ عَـــزَّ عَزَائِـــي

أَبْغِـــى نَـــوَالَ الأَكْـــرَمِيْنَ مُعَـــاوِلاً ... أَبْغِـــى نَـــوَالَ البُومَـــةَ البَكْمَـــاءِ

وأما الثائر الثاني من العرب فكان أيضاً في أيام الأمير عبد الله بن محمد عندما استقل التجيبيون بالثغر الأعلى، ولما جاء المنصور بن عامر إلى الحكم

---

(١) **ابن حيان** : المقتبس ص٢٨، ٢٩، تحقيق إسماعيل العربي.وكذا ابن عذارى المراكشي:البيان المغرب ١٢٧/٢ تحقيق ج . س . كولان، و إ .ليفي بروفنسال، طبعة دار الثقافة، بيروت .

(٢) ابن حيان: المقتبس تحقيق إسماعيل العربي ص ٣٠ – ١٥٥ .

ثار عبد الرحمن بن مطرف التجيبي وتآمر مع عبد الله بن منصور، وتقاسما الأندلس ولكن المنصور قضى على هذه المؤامرة قبل نضوجها .

واستمر بنو هاشم التجيبيون ثائرين في الثغر الأعلى رغم مناهضتهم، ومع ذلك كانوا مستقلين بهذا الثغر، فكان الناصر لدين الله يجمع الجيوش ويعد العدة لمحاربة بني تجيب سنة ٣٢٥ هـ، يقول عبد الله عنان :«في منتصف شهر رجب سنة ٣٢٥ هـ(مايو سنة ٩٣٧م)، خرج من قرطبة إلى مقاتلة أعدائه في جيش ضخم، وكان بروزه يوماً مشهوداً، تبدد فيه روع أهباته». [١]

ويرصد لنا الفقيه أحمد بن عبد ربه في ذلك قصيدة منها [٢] :

يَـوْمٌ مِـنَ الْعِـزِّ مَجْمُـوعٌ لَـهُ النَّـاسُ يَخْتَـالُ فِي عِقْوَتَيْـهِ الْجُـودُ وَ الْبَـاسُ

ويواصل عبد الله عنان رصده لأحداث الفتنة بقوله : «علم عبد الرحمن في أثناء سيره، أن النصارى في الوقت الذي يحتشدون فيه بأطراف الثغر الأعلى، لمناصرة حليفهم الخارج محمد بن هاشم التجيبي صاحب سرقسطة، يحاولون في نفس الوقت أن يزحفوا صوب طليطلة لإثارة الثورة فيها، فسار بجيشه إلى طليطلة كيما يؤمن أهلها، ويرهب النصارى، ونزل عليها فلما علم النصارى بمقدمه ارتدوا مذعورين إلى الشمال، وفي خلال ذلك وافاه كتاب من أحمد بن محمد بن إلياس قائد الثغر بظفره بالعصاة في مدينة وشقة، وكتاب آخر بإخماد ثورة أهل طلبيرة غربي طليطلة .

وسار عبد الرحمن بعد ذلك إلى الثغر الأعلى من طريق وادي الحجارة، وأبقى قوة من جيشه في منطقة طليطلة بقيادة مولاه دُرِّى، للسهر على النظام في تلك المنطقة، ورأى أن يبدأ بقلعة أيوب، وكان قد امتنع بها مطرف بن منذر التجيبي المعروف بأبي شويرب، وكان راميرو قد بعث لإنجاده فرقة من

---

(١) عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس٢/٤٠٧ .

(٢) ابن عبد ربه (أحمد بن محمد) ت٣٢٨هـ. ديوانه ص ١٥٠ جمعه وصحح نصوصه وقدم لقصائده وشرح معانيه الدكتور/محمد رضوان الداية. طبعة دار الفكر، الطبعة الثالثة، دار الفكر دمشق، سوريا سنة ١٤٢٤هـ /٢٠٠٣م.

فرسان ألبة والقلاع، فحاصر عبد الرحمن القلعة، وبعث يدعوه إلى الطاعة، ويؤكد له الأمان بخطه، فرفض مطرف أن يستجيب إلى هذه الدعوة، فهاجم عبد الرحمن القلعة، وبرز إليه مطرف وحلفاؤه، ونشبت بين الطرفين معركة شديدة، هزم على أثرها مُطَرِّفٌ وقتل، ولجأ أخوه حكم بن منذر في فلوله ومن معه من فرسان ألبة إلى القصبة، وامتنعوا بها، فاستمر الهجوم عليهم، وكثر القتل في المدافعين، حتى اضطر حكم أن يطلب الأمان لنفسه ولحلفائه النصارى، ليعودوا إلى بلادهم، ويلحق هو وأهله بالحضرة، فقبل الناصر ونزل حكم ومن معه من القصبة، وأعفي عن النصارى المستأمنين، وقتل الباقي، ووقع فتح قلعة أيوب .

على هذا النحو في التاسع عشر من شهر رمضان من هذه السنة». (١)

ثم يضيف عنان إلى ما سبق بقوله : «كان فتح قلعة أيوب أول صدع خطير في ثورة بني تجيب، وكان بها، فضلاً عن مناعتها الطبيعية، عدة كبيرة من فرسان سرقسطة الأكابر، وخمسمائة من الفرسان النصارى لم ينج منهم سوى الخمسين الذين أُمِّنوا، وقد أفاضت الشعراء في تهنئة الناصر لدين الله بهذا الفتح، فأكثرت وأفاضت، وأكثرت وجودي، فمن أحسن أقوالها فيه قول زعيمهم أحمد بن عبد ربه : (٢)

يَـا ابْـنَ الخَلائِـفِ وَالـصِّيدِ الـصَّنَادِيدِ أَلْقَـتْ إِلَيْـكَ الرَّعَايَـا بِالْمَقَالِيـدِ

ومـن الثـورات الداخليـة التـي قـضى عليهـا الناصـر أيـضاً ثـورة مدينـة « إستجة » حيث كان أهلها ممن خلع وخالف فافتتحها عبد الرحمن بن محمد على يد

(١) عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس٢/٤٠٧- ٤٠٨ .

(٢) ابن عبد ربه (أحمد بن محمد ت٣٢٨هـ) : ديوانه ص٩٦ جمعه وصحح نصوصه وقدم لقصائده وشرح معانيه الدكتور/محمد رضوان الداية، طبعة دار الفكر، الطبعة الثالثة، دار الفكر دمشق، سوريا سنة ١٤٢٤هـ /٢٠٠٣م.

بدر الحاجب سنة ثلاث مائة فهدم سورها، ووضع بالأرض قواعدها وألحق أعاليها بأسافلها، وهدم قنطرة نهرها وفي ذلك يقول أحمد بن محمد بن عبد ربه : (١)

أَلاَ إِنَّـــهُ فَـــتْحٌ لَـــهُ الْفَـــتْحُ ... فَأَوَّلُـــهُ سَـــعْدٌ وَآخِـــرُهُ نُجْـــحُ
سَـرَى الْقَائِـدُ الْمَيْمُـونُ خَيْـرَ سَـرِيّةٍ ... تَقَـــدَّمَهَا نَـــصْرٌ وتابَعَهـــا فَـــتْحُ
ألمْ تَـــرَهُ أَرْدى بإِسْـــتِجَّةَ العِـــدا ... فَلاقَـوْا عَـذَابَاً كَـانَ مَوْعِـدَهُ الـصُّبْحُ
فَـلا عَهْـدَ لِلْمُـرّاقِ مِـنْ بَعْـدِ هَـذِهِ ... يَـتِمُّ لَهُـمْ عِنْـدَ الإِمَـامِ وَلاَ صُـلْحُ
تَوَلَّـــوْا عَبَادِيـــداً بِكُـــلِّ ثَنِيَّـــةٍ ... وَقَـدْ مَـسَّهُمْ قَـرْحٌ وَمَـا مَـسَّنَا قَـرْحُ

فقد كان من عجائب القدر أن تحققت نبوءة الشاعر، وتمت الهزيمة على غرسية، وجرح وأُسر، وتوفي بقرطبة متأثراً بجراحه .

(٣) ثورة المولدين

كما كان للعرب ثورات محلية وفتن سياسية ضد حكومة قرطبة كان أيضاً للمولدين ثورات أيضاً ضد بعضها البعض، بعد أن كانوا يداً واحدة، ولكن المولدين هدموا الاتفاق ونكثوا العهود، فنما بينهم صراع سياسي وعراك أدبي ما لبث أن كبر واشتد بمرور الأيام .

وكان أول صدام بين العرب والمولدين في أيام الأمير عبد الله بن محمد، وذلك بعد أن ثار من العرب يحيى بن صقالة في ناحية البراجلة بكورة إلبيرة بالاتفاق مع المولدين ، ولكن المولدين خانوا العهد وغدروا بيحيى فقتلوه غيلة بعد اطمئنانه إليهم وثقته فيهم، فكان ذلك الحدث بمثابة الشرارة التي أشعلت النيران بين الفريقين، فأراد العرب أن ينتقموا من قتلة يحيى فالتفوا حول سوار بن حمدون القيسى وطالبوا بثأر يحيى بن صقالة فأوقعوا بالمولدين وجعد بن عبد الغافر عامل الأمير عبد الله

(١) ابن عبد ربه (أحمد بن محمد ت٣٢٨هـ) : ديوانه ص ٨٤ جمعه وصحح نصوصه وقدم لقصائده وشرح معانيه الدكتور/محمد رضوان الداية،

الهزيمة الساحقة وأسر سوار جعداً ولذلك تسمى هذه الوقيعة بوقيعة جعد، وكان لهذا النصر العربي على المولدين صداه في الشعر، فقام سعيد بن جودي السعدي وأنشد قصيدة طويلة يبرر فيها أخذ ثأرهم من المولدين بسبب قتل يحيى فقال [1]:

قَـــدْ طَلَبْنَـــا بِثَأْرِنَـــا فَقَتَلْنَـــا ... مِـــنْكُمُ كُـــلُّ مَـــارِقٍ وَعَنِيـــدِ
وقَتَلْنَـــاكُمُ بِيَحْيَـــى وَمَـــا إِنْ ... كَـــانَ حُكْـــمُ اللهِ بِـــالمَرْدُودِ
هِجْـتُمْ يَـا بَنِـي العَبِيـدِ لِيُوثَـاً ... لَـمْ يَكُونُـوا عَـنْ ثَـأْرِهِمْ بِقُعُـودِ
فَاصْـطَلُوا حَرَّهَـا وَحَـرَّ سُـيُوفٍ ... تَتَلَظَّـــى عَلَـــيْكُم كَـــالوَقُودِ
لمْ تَزَالُـــوا تَبْغُونَهَـــا عِوَجَـــاً ... حَتَّـــى وَرَدْتُـــم للمـــوتِ شَـــرَّ وُرُودِ

ثم يأخذ الشاعر في تمجيد سوار بن حمدون والإشادة بعروبته وشجاعته، وما فعله في المولدين من قتل وأسر في إلبيرة بسبب غدرهم بسوار وقتلهم إياه فيقول :

جَاءَكُمْ مَاجِدٌ قَدْ جَرَى إِلَى المَجْدِ حتَّى ... نَـــالَ بِالـــسَّبْقِ غَايَـــةَ التَّمْجِيـــدِ
وَنَمَتْـــهُ لِلْوُجُـــودِ آبَـــاءُ صِـــدْقٍ ... وَجُـــدُودٍ مَـــا مِـــثْلُهُمْ مِـــنْ جُـــدُودِ
هِبْـــرَزِيٌّ مُهَـــذَّبٌ مِـــنْ نِـــزَارٍ ... وَعَمِيـــدٌ مَـــا مِثْلُـــهُ مِـــنْ عَمِيـــدِ
يَطْلُـــبُ الثَّـــأْرَ ثَـــأْرَ قَـــوْمٍ كِـــرَامٍ ... أَخَـــذُوا بِـــالعُهُودِ بَعْـــدَ العُهُـــودِ
فَاسْـتَبَاحَ الحَمْـرَاءَ لَـمْ يُبْـقِ مِـنْهُمْ ... غَيْـــرَ عَـــانٍ فِـــي قَيْـــدٍ مَـــصْفُودِ
قَـدْ قَتَلْنَـا مِـنْكمْ أُلُوفـاً فَمَـا يَعْـدِلُ ... قَتْـــلُ الكَـــرِيمِ قَتْـــلَ العَبِيـــدِ
قَتَلُـــوهُ لَمَّـــا أَضَـــافَ إِلَـــيْهِمُ ... لَـــمْ يَكُـــنْ قَتْلُـــهُ بِـــرَأْيٍ رَشِـــيدِ
قَتَلَتْـــهُ عَبِيـــدُ سُـــوءٍ لِئَـــامٍ ... وَفِعَـــالُ العَبِيـــدِ غَيْـــرُ حَمِيـــدِ

(١)ابن حيان:المقتبس. راجع القصيدة كلها لديه ، تحقيق إسماعيل العربي ص ٨٢.

لَـمْ يُـصِيبُوا الرَّشَـادَ فِيمَـا أَتَـوهُ ... لاَ وَلاَ كَـانَ جَـدُّهمْ بِـسَعِيدِ

ثم تحدث الشاعر عن العهود والمواثيق التي نقضها المولدون مع يحيى، وعن قتله غدراً وأن هذا القتل بهذه الصورة لا يقلل من شجاعة يحيى الذي عدد الشاعر كثيراً من صفاته مستخدماً الفعل" كان" على سبيل الرثاء فقال :

قَـدْ غَـدَرْتُم بَنِـي اللُّـؤْمِ بَعْـدَ ... يَمِـينٍ قَـدْ أُكِّـدَتْ بِعُهُـودِ
فَلَـئِنْ كَـانَ قَتْلُـهُ غَـدْرَةً مَـا ... كَـانَ بِـالنُّكْسِ لاَ وَلاَ بِالرِّعْدِيـدِ
كَـانَ لَيْثَـاً يَحْمِـى الحُـرُوبَ وَحِـصْنَا ... وَمَـلاَذاً وَعِـصْمَةَ المَـصْفُودِ
كَـانَ فِيـهِ التُّقَـى مَـعَ الحِلْـمِ وَالبَـأْ ... سِ وَجُـودٌ مَـا مِثْلُـهُ وُجُـودِ
عَـالِ مَجْـدَ الأَمْجَـادِ مَجْـدُكَ يَـا يَحْـ ... ـيَى قَـدِيْمَاً وَقْـتَ كُـلِّ مَجِيـدِ
فَجَـزَاكَ الإِلَـهُ جَنَّـةَ عَـدْنٍ ... حَيْـثُ يُجْـزَى الثَّـوَابَ كُـلُّ شَـهِيدِ

وبعد هذه الواقعة التفَّ المولدون حول زعيمهم عمر بن حفصون كما اجتمع معهم أهل حاضرة إلبيرة ليقاتلوا سواراً والعرب، ولكن سواراً استطاع أن يهزمهم ثانية، ويقتل منهم اثني عشر ألفا، وتعرف هذه الموقعة بموقعة المدينة، وفي ذلك يقول سعيد بن جودي يصف أحداث المعركة وما دار فيها(١).

يَقُـولُ بَنُـو الْحَمْـرَاءِ لَـوْ أَنَّ جُنْحَنَـا ... يَطِـيرُ لَعَـشَّاكُمْ بِـشُؤْبُوبٍ وَابِـلِ
وَضِـقْتُمْ بِـهِ ذَرْعَـاً وَ جَاشَـتْ نُفُوسُـكُمْ ... وَمَـا مَنَعَـتْكُمْ مَانِعَـاتُ الْمَعَاقِـلِ
فَقَـدْ كَـانَ طَـرْدُ الجُـنْحِ إِذْ طَـارَ نَحْوَنَـا ... كَـذِبَّانِ حَـسْوٍ أَوْ كَـدُودِ المَزَابِـلِ
وَهَاجَـتْ شَـآبِيبُ الحُقُـوقِ عَلَـيْكُمُ ... بِرَعْـدٍ وَبَـرْقٍ سَـحَّ وَهْوَاطِـلِ
لَظَلَّـتْ سُـيُوفُ الهِنْـدِ تَحْـصِدُ جَمْعَكُـمْ ... حَـصَادَ زُرُوعٍ أَيْنَعَـتْ لِلْمَنَاجِـلِ
وَلَّمَـا رَأَوْنَـا رَاجِعِـينَ إِلَـيْهِم ... تَوَالَـوْا سِـرَاعَاً خَـوْفَ وَقْـعِ المَنَاصِـلِ

(١) ابن حيان:المقتبس، ص ٨١، تحقيق إسماعيل العربي .

فَصِرْنَا عَلَيْهِمْ وَالرِّمَاحُ تَنُوشُهُمْ ... كَوَقْعِ الصَّيَاصِي تَحْتَ وَهْجِ القَسَاطِلِ
فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُم غَيْرَ عَانٍ مُصَفَّدٍ ... يُقَادُ أَسِيْراً مُوَثَّقَاً فِي السَّلاسِلِ
وَآخَرُ مِنْهُم هَارِبٌ قَدْ تَضَايَقَتْ ... بِهِ الأَرْضُ مِنْ جَوَى وَبَلابِلِ

وبعد أن وصف عدد جيش المولدين الكثير، وأنه في نظر سوار والعرب ذبان أو دود، أخذ في وصف المعركة وحصد السيوف لهؤلاء الأعداء، وأسرهم وهربهم ثم تكلم عن العرب لا فرق بين عدناني وقحطاني، وشجاعة قائدهم القيسي وعروبته وكرمه وكيف قتلهم وترك جثثهم كالجبل العالي وأن المولدين قد عجلوا بحتوفهم في هذه المعركة :

بِهَا مِنْ بَنِي عَدْنَانَ فِتْيَانُ غَارَةٍ ... وَمِنْ آلِ قَحْطَانَ كَمِثْلَ الأَجَادِلِ
يَقُودُهُمُ لَيْثٌ هَزِيْرٌ ضُبَارِمٌ ... مَحَشُّ حُرُوبٍ مَاجِدٌ غَيْرُ خَامِلِ
أَرُومَتُهُ مِنْ خَيْرِ قَيْسٍ نَمَا بِهِ ... إِلَى المَجْدِ قُدْمَاً وَالعُلَى كُلُّ فَاضِلِ
أَخُو ثِقَةٍ مَحْضُ النَّجَارِ مُهَذَّبٌ ... لَهُ حَسَبٌ زَاكٍ كَرِيمِ الأَوَائِلِ
لَهُ سَوْرَةٌ قَيْسِيَّةٌ عَرَبِيَّةٌ ... بِهَا ذَادَ عَنْ دِينِ الهُدَى كُلُّ جَاهِلِ
لَقَدْ سَلَّ سَوَّارٌ عَلَيْكُم مُهَنَّداً ... يَحُزُّ بِهِ الهَامَاتِ حَزَّ المَفَاصِلِ
بِهِ قَتَلَ اللهُ الَّذِينَ تَحَزَّبُوا ... عَلَيْنَا وَكَانُوا أَهْلَ إِفْكٍ وَبَاطِلِ
سَمَا لِبَنِي الحَمْرَاءِ إِذْ حَانَ حَتْفُهُم ... بِجَمْعٍ كَمِثْلِ الطَّوْدِ أَرْعَنَ رَافِلِ
تَضِيقُ لَهُ الأَرْضُ الفَضَاءُ ضُبَارِمٌ ... عَظِيمٌ شَدِيْدُ الرَّكْضِ جَمُّ الهَوَاصِلِ
آزَرْتُمْ رَحَى حَرْبٍ فَدَارَتْ عَلَيْكُمُ ... بِحَتْفٍ بِهِ أَفْنَاكُمُ اللهُ عَاجِلِ

ثم قال سعيد بن جودى أيضاً في ذكره هذه الوقيعة العظمى "وقيعة المدينة" [1]:

فَمَا كَانَ إلاَّ سَاعَةً ثُمَّ غُودِرُوا كَمِثْلِ حَصِيدٍ فَوْقَ ظَهْيْرِ صَعْيدِ

إذن فقد كان سوار بن حمدون القيسي – كما وصفه سعيد بن جودي في شعره – سياسياً بارعاً وبطلاً مغواراً، أنزل بالموحدين والعجم كثيراً من القتل والأسر، وكانت العرب تفخر به وتقدمه رئيساً عليهم، ولما قتل ذلت العرب بمقتله، وكل حدها بما نزل فيه، ويحدثنا ابن الأبار عن قتلة سوار وما فعلوه في جثته، ومن قام بعده من العرب وخصاله فيقول : « وكان (سوار) قد أصيب على يدي بعض أصحاب ابن حفصون، فيقال إن جثته مزقها ثكالى نساء المولدين قطعاً، وأكله كثير منهم حنقاً عليه، لما نالهن به المرة من الثكل في بعولتهن وأهليهن، فنصبت العرب لإمارتها بعده سعيد بن سليمان بن جودي صاحبه، وعلقت آمالها به، فلم يسد مكانه، ولا بلغ مداه في السياسة، على أنه كان شجاعاً، بطلاً وفارساً مجرباً وتحقق بضروب الأدب فاغتدى أديباً نحريراً، وشاعراً تعد له عشر خصال، تفرد بها في زمانه لا يدفع عنها : الجود والشجاعة والفروسية والجمال، والشعر والخطابة والشدة والطعن والضرب والرماية، وهابة ابن حفصون هيبة لم يهبها أحد ممن مارسه، إذ لم يقله قط إلا علاه وهزمه، ومن قوله وهو أسير لدى عمر بن حفصون قبل رئاسته للعرب يتكلم عن الصبر والشجاعة [2]:

خَلِيلَيَّ صَبْراً رَاحَةُ الْحُرِّ فِي صَبْرِ وَلاَ شَيءَ مِثْلُ الصَّبْرِ فِي الكَرْبِ لِلْحُرِّ
فَلاَ تَيْأَسَا مِنْ فَرْحَةٍ بَعْدَ تَرْحَةٍ وَإِنْ تَبْلَيَا بِاليُسْرِ مِنَ بَعْدَ مَا عُسْرِ
فَكَمْ مِنْ أَسِيرٍ كَانَ فِي القَيْدِ مُوَثَّقاً فَأَطْلَقَهُ الرَّحْمَنُ مِنْ حَلَقِ الأَسْرِ

(١)ابن حيان: المقتبس، ص ٨١، تحقيق إسماعيل العربي .

(٢) المصدر السابق: ص ١٤٩.

لَئِنْ كُنْتُ أَخْشَى بَعْضَ مَا قَدْ أَصَابَنِى حَمَتْنِى أَطْرَافُ الرُّدَيْنِيَّةُ السُّمْرِ
فَقَدْ عَلِمَ الفِرْسَانُ أَنَّى كَمِيُّهَا وَفَارِسُهَا المِقْدَامُ فِي سَاعَةِ الذُّعْرِ

وقتل سعيد بن جودي غيلة بسبب امرأة [1] على يد أصحابه، قال ابن الأبار: «وزعموا أن من أقوى الأسباب في قتله أبياتاً من الشعر قالها في الأئمة من بني مروان، منها قوله لعبد الله بن محمد[2]:

يَا بَنِي مَرْوَانَ جِدُّوا فِي الهَرَبِ نَجَمَ الثَّائِرُ مِنْ وَادِى القَصَبِ
يَا بَنِي مَرْوَانَ خَلُّوا مُلْكَنَا إِنَّمَا المُلْكُ لأَبْنَاءِ العَرَبِ

وأيا كان سبب مقتل سعيد بن جودي، فقد كان مثلاً للشجاعة العربية وقدوة للنزعة الأدبية، ومن ثم رثاه بعض الشعراء، ومنهم الأسدي ومقدم بن معافى، فالأسدي يقول فيه [3]:

لاَ سَاغَتْ الرَّاحُ لِى مِنْ كَفِّ سَاقِهَا حَتَّى تُقَرِّبَ نَفْسٍ مِنْ تَمَنِّيهَا
وَأَنْ أَرَى الخَيْلَ تَرْدَى فِي أَعِنَّتِهَا لِثَأرِ مَنْ كَانَ قَبْلَ اليَوْمِ يُرْضِيهَا

ثم يدعو العرب عن طريق قاسم بن عياض أن يتحدوا بمختلف قبائلهم في وجه عدوهم :

يَا قَاسِمَ بْنَ عَيَاضٍ دَعْوَةً فَلَقَتْ صُمَّ الصُّخُورِ فَلَمْ يُسْمَعْ مُنَادِيهَا
أَبْلِغْ رَبِيعَةً وَالحَيَّيْنِ مِنْ مُضَرٍ وَآلَ عَدٍّ إِذَا حَلَّتْ وَادِيْهَا
وَآلَ سَعْدٍ فَقَدْ أَضْحَتْ وَلَيْسَ لَهَا رَاعٍ يَحُوطُ قَضَايَاهَا بَعْدَ رَاعِيهَا
مِنْ بَعْدِ مَا آلَتْ الآفَاقُ مُذْعِنَةً طَوْعَاً لَهُ وَأَجَابَتْهُ عَوَاصِيْهَا

(١) ابن سعيد: المغرب ١٠٥/٢

(٢) ابن الأبار: الحلة ١٥٦/١ .

(٣)ابن حيان:المقتبس، ص ٨٧– ٨٨ تحقيق إسماعيل العربي .

ويرثي مقدم بن معافي سعيداً قائلاً : [1]

مَـــنْ ذَا الَّـــذِي يُطعَـــمُ أو يُكْـــسَى ... وَقَـــدْ حَـــوَى حَلْـــفَ النَّـــدَى مَـــسُّ
لاَ اخْـــضَرَّتِ الأَرْضُ وَلاَ أَوْرَقَ الـــ ... ـــعَودُ وَلاَ أَشْـــرَقَتِ الـــشَّمْسُ
بَعْـــدَ ابْـــنِ جُـــودِى الَّـــذِي لَـــمْ تَـــرَ ... أَكْـــرَمَ مِنْـــهُ الجِـــنُّ وَالإِنْـــسُ
دُمُـــوعُ عَيْنِـــى فِـــي سَـــبِيلِ الأَسَـــى ... عَلَـــى سَـــعِيدٍ أَبَـــداً حَـــبْسُ

وأما عن المعارك الأدبية التي دارت بين العرب والمولدين فقد قام الأسدي واسمه محمد بن سعيد بن مخارق الأسدي شاعراً للعرب، وقام العبلي واسمه عبد الرحمن بن أحمد وينسب إلى قرية عبلة شاعراً للمولدين، وكان كل منهما يحرض قومه ويناضل عن مذهبه، ويصف ما يجرى لقومه على أضدادهم من الوقائع المخزية، فلهما في ذلك أشعار كثيرة أثرت الحياة الأدبية في ذلك الوقت، حتى وجد ما يشبه النقائض الشعرية التي جرت في عصر بني أمية في المشرق بين جرير والأخطل والفرزدق .

فهذا العبلى شاعر المولدين يهاجم عرب إلبيرة بأن منازلهم خاوية، ليس فيها سوى الرياح تسابق التراب الناعم، مشيراً إلى أن العرب يديرون أمورهم في منطقة إلبيرة وخاصة في القلعة الحمراء، ولكن في هذه المنطقة بالذات تدور عليهم الدوائر، وأن سيوف المولدين قد حصدت هؤلاء العرب[2]

مَنَـــازِلُهُمْ مِـــنْهُم قِفَـــارٌ بَلاَقِـــعُ ... تُجَـــارِي الـــسَّفَا فِيهَـــا الرِّيَـــاحُ الزَّعَـــازِعُ
وَفِـــي القَلْعَـــةِ الحَمْـــرَاءِ تَـــدْبِيرُ زَيْغِهِـــم ... وَمِنْهَـــا عَلَـــيْهِم تَـــسْتَدِيرُ الوَقَـــائِعُ
كَمَـــا حَـــصَدَتْ آبَـــاءَهُم فِـــي ضَـــلاَلِهِم ... أَسِـــنَّتُنَا وَالمُرْهِفَـــاتُ القَوَاطِـــعُ

(١)ابن حيان:المقتبس، ص ٨٧- ٨٨ تحقيق إسماعيل العربي .

(٢)المصدر السابق: ص ٨٥ .

فيرد عليه الأسدي شاعر العرب، في نفس الوزن والقافية، مفنداً كل ما قاله العبلي شاعر المولدين، وأنهم سوف ينتقمون عن قريب في وقعة تشيب له الولدان والرضع [1]:

مَنَازِلُنَا مَعْمُورَةٌ لاَ بَلاقِعُ وَقَلْعَتُنَا حِصْنٌ مِنَ الضَّيْمِ مَانِعُ
وَفِيهَا لَنَا عِزٌّ وَتَدْبِيرُ نُصْرَةٍ تَشِيْبُ لَهَا وِلْدَانُكُمْ وَالمَرَاضِعُ
أَلاَ فَأْذَنُوا مِنْهَا قَرِيْبَاً بِوَقْعَةٍ تَشِيْبُ لَهَا وِلْدَانُكُمْ وَالمَرَاضِعُ

ومرة أخرى يقول العبلي قصيدة، يهاجم فيها العرب، ويصف هزيمتهم وذلهم، وأن داءهم أهدرت لدى المولدين في إلبيرة[2]:

قَدِ انْقَصَفَتْ قَنَاتُهُمْ وَذَلّوا وَزُعْزِعَ رُكْنُ عِزِّهِمْ الأَذَلُّ
فَمَا طَلَّتْ دِمَاؤُهُم لَدَيْهِم وَهَاهُمْ عِنْدَنَا فِي إِلْبِيْرَةَ طَلُّ

فيرد عليه الأسدي أيضاً بأن العرب قد اجتمعوا ليلاً وانتصروا على أعدائهم لأن الله يؤيدهم بمختلف قبائلهم فيقول:

قَدِ احْتَلَّ الأَحِبَّةُ وَاسْتَقَلُّوا لِطِيَّتِهِم بِلَيْلٍ وَاحْزَألُّوا
فَظَلَّ الدَّمْعُ مِنْ جَزَعٍ عَلَيْهِم إِذَا احْتَمَلُّوا يَسِحُّ وَيَسْتَهِلُّ
سَأَصْرِفُ هِمَّتِي عَنْهُم وَأَسْلُو بِهَجْوِي مَعْشَرَاً كَفَرُوا وَضَلُّوا
لِوَاءُ النَّصْرِ مَعْقُودٌ عَلَيْنَا بِتَأْيِيدِ الإِلَهِ فَمَا يُحَلُّ
إِذَا مَا اسْتَمْلأَتْ أَسَدٌ وَقَيْسٌ رَأَيْتَ الشِّرْكَ قَدْ خَضَعُوا وَذَلُّوا
وَمِن قَحْطَانَ وَالحَيَّيْنِ بَكْرٌ وَتَغْلِبُ أُسْدُ غَابٍ مَا تَفِلُّ

(١)ابن حيان:المقتبس، ص ٨٦ تحقيق إسماعيل العربي . .

(٢) المصدر السابق: الموضع نفسه .

وهناك قصيدة أخرى قيلت في الرد على قصيدة العبلى السابقة تنسب ليحيى بن أخي يحيى بن صقالة أول الثائرين من العرب، وقيل لسعيد بن جودى، يمجد فيها قائلها زعيم العرب بإلبيرة سوار بن حمدون، وكيف أذل هؤلاء المولدين وكيف سفك دماءهم، كل ذلك في نفس الوزن والقافية التي قال فيها العبلى قصيدته [1]:

لِسَوَّارٍ عَلَى الأَعْدَاءِ سَيْفٌ ... أَبَادَ ذَوِي العَدَاوَةِ فَاضْمَحَلُّوا

لَقَدْ ذَلَّتْ رِقَابُهُم بِصِغَرٍ ... فَصَادَمَهُم شَدِيدُ البَأْسِ صِلُّ

سَقَاهُم كَأْسَ حَتْفٍ بَعْدَ كَأْسٍ ... بِهَا نَهَلَ العَبِيدُ مَعَاً وَعَلُّوا

وَقَد رُفِعَتْ لِسَوَّارٍ قَنَاةٌ ... بِهَا خَضَعَتْ رِقَابُهُم وَذَلُّوا

قَنَاةُ المَجْدِ مَرْكَزُهَا عَزِيزٌ ... حَمَاهَا مَانِعٌ لاَ يُسْتَذَلُّ

فَتَلْتَ بِوَاحِدٍ سَوَّارُ أَلْفَاً ... وَأَلْفُهُم بِوَاحِدِنَا يَقِلُّ

فَأَكْثَرُ قَتْلِنَا لَهُم حَلاَلٌ ... بِمَا ارْتَكَبُوهُ ظُلْمَاً وَاسْتَحَلُّوا

أَضَافَ إِلَيْهِم رَجُلٌ تَقِيٌّ ... فَجَاءُوا فِيهِ أَمْرَاً مَا يَحِلُّ

فَأَوْرَدْنَا رِقَابَهُم سُيُوفَاً ... تَشِبُّ النَّارَ فِيْهَا إِذْ تَسِلُّ

وَقَدْ سُفِكَتْ دِمَاؤُهُم وَطَلَّتْ ... وَلَيْسَ لَنَا دَمٌ يَوْمَاً يَطِلُّ

رُوَاقُ المَجْدِ مَضْرُوبٌ عَلَيْنَا ... مَنِيعُ الجَانِبَيْنِ فَمَا يَزِلُّ

سَمَوْنَا فَوْقَ عَرْشِ المَجْدِ قُدْمَاً ... وَعَرْشُ المَجْدِ فِيهِ لَنَا المَحَلُّ

وَرِثْنَا المَجدَ عَنْ آبَاءِ صِدْقٍ ... وَإِرْثُكُم بَنِي العُبْدَانِ ذُلُّ

وَأَخْضَعْنَا رِقَابَهُم فَذَلَّت ... فَلَيْسَ مَا حِيِيتُم تَسْتَقِلُّ

(١)ابن حيان:المقتبس تحقيق إسماعيل العربي . ص ٨٨، ٨٩ .

ولم يقف الصراع بين العرب والمولدين على كور إلبيرة فقط، وإنما تعداها إلى إشبيلية حيث استطاع عرب إشبيلية أن يهزموا المولدين ويقتلوا منهم عشرين ألفاً، سوى من مات في النهر غرقاً وهو يطلب النجاة، وذلك في موقعة الحاضرة سنة ٢٧٦ هـ، وفي ذلك الوقت يقول شاعر من العرب مصوراً أحداث المعركة [١] :

أَبَـدْنَا بِالسُّيُوفِ بَنِي العَبِيدِ ... فَرَاحُوا هَامِدِينَ عَلَى الصَّعِيدِ
فَتَلْنَا مِنْهُمُ عِشْرِيْنَ أَلْفَاً ... فَقَلَّلَنَا الكَثِيرَ مِنَ العَدِيدِ
سِوَى مَنْ مَاتَ سَبْيَاً أو غَرِيقَاً ... بِنَهْرٍ زَاخِرِ الأَمْوَاجِ مُودِ
بَنِي قَحْطَانَ لِلأَذْوَاءِ تُنْسَى ... وَيُنْسَ العَبِيدُ لِلعَبِيدِ
كِلاَبٌ فِي ثِيَابِ اللُّؤْمِ رَامَت ... تُغَاوِرُ فِي العَرِينِ حِمَى الأُسُودِ
فَرَاشَ النَّاسُ وَانْتَعَشُوا وَحَلُّوا ... وُقُوداً فِي الحَمِيمِ عَلَى ثُمُودِ

ولعل شعراء العرب كانوا يحسون – دائماً – بخطر المولدين، ولذا كانوا يدعونهم إلى الوحدة واليقظة، لا تفريق بين عدناني وقحطاني، كما يحق للعرب أن يفخروا لأن من أعظم أمجادهم ودواعي سيادتهم أن النبي ﷺ منهم، وأن الخلفاء الراشدين والمهاجرين والأنصار من آبائهم، وهذا ما يقرره شاعر العرب الأسدي حيث يقول [٢]:

يَا أَيُّهَا العَرَبُ فِي أَقْصَى مَحَلَّتِهِم ... أَنْتُم نِيَامٌ وَمَنْ يَشْنَاكُمُ سَهِرُ
مَا عَيْشُ عَدْنَانَ دُونَ الحَيِّ مِنْ يَمَنٍ ... أَوْ عَيْشُ ذِي يَمَنٍ قَدْ خَانَهَا مُضَرُ
إِنَّ السِّهَامَ إِذَا مَا فُرِّقَتْ كُسِرَتْ ... وَإِنْ تَجَمَّعْنَ يَوْمَاً لَيْسَ تَنْكَسِرُ
أَنْتُمْ قَلِيلٌ، كَثِيرٌ فِي غَنَائِكُمْ ... وَغَيْرُكُم قَلِيلٌ فِيكُمْ وَإِنْ كَثُرُوا

(١)ابن حيان:المقتبس تحقيق إسماعيل العربي . ص ١٠٨ .
(٢)المصدر السابق: ص ٨٧ .

أَلَـــيْسَ مِـــنْكُم نَبِـــيُّ اللهِ أَكْـــرَمُ مَـــنْ ... بَـــرَا الإِلَـــهُ وَمَـــنْ جَـــاءَتْ بِـــهِ الـــسُّوَرُ
وَصَـــاحِبَاهُ : أَبُـــو بَكْـــرٍ خَلِيفَتُـــهُ ... وَخِدْنُـــهُ المُرْتَـــضَى مِـــنْ بَعْـــدِهِ عُمَـــرُ
وَمَعْـــشَرٌ هَـــاجَرُوا فِـــي اللهِ رَبَّهُـــمُ ... وَالتَّـــابِعُونَ وَمَـــنْ أَوَوْا وَمَـــنْ نَـــصَرُوا
قُـــلْ لِلْقَبَائِـــلِ مِـــنْ هُـــودٍ وَمِـــنْ أَدَدٍ ... تَقَبَّلُـــوا النُّـــصْحَ إِذْ قُلْنَـــاهُ أَوْ فَـــذَرُوا
مَـــا إِن تَرَكْـــتُ لَكُـــمْ نُـــصْحَاً لِمُنْتَـــصِحٍ ... وَالنُّـــصْحُ عِنْـــدَ ذَوِي الأَلْبَـــابِ مُـــدَّخَرُ

وهكذا كان حال العرب والمولدين من حيث النزاعات والصراعات السياسية والأدبية وخاصة في أيام الأمير عبد الله، حتى أحيوا فناً من فنون الأدب وهو شعر المناهضة بين الفريقين أو ما يعرف بالنقائض، بيد أن نقائض الأندلس كانت تختلف عن نقائض بني أمية في المشرق، حيث أخذت الأولى طابعاً جماعياً، بينما مالت الثانية في كثير من الأحيان إلى الطابع الشخصي والهجاء الفردي .

(٤) فتنة البربر

كانت الفترة التي سبقت الفتنة البربرية فترة مضيئة في تاريخ الأندلس السياسي والإسلامي، حيث كانت السلطة التنفيذية في يد حاجب قوى العزيمة، ثاقب الذهن، حاد الذكاء، فقد استطاع بنفوذه ودهائه ومكره السياسي أن يزيح من أمامه جميع المنافسين والحاقدين بما فيهم الخليفة الشرعي آنذاك هشام المؤيد الذي لم يكن له من الأمر سوى تسميته بخليفة المسلمين .

والحق أن المنصور بن أبى عامر كان قوياً من الناحية العسكرية أيضاً حتى أنه لم يهزم في موقعة أو غزوة واحدة من غزواته الكثيرة، وكان لنفوذ المنصور وغلبته على هشام المؤيد رد فعل عند كثير من الأمويين الذي كانوا يسخطون لذلك الوضع ويتبرمون منه، وقد انعكس ذلك في أشعارهم، حيث شاع لون من الشعر في ذلك الوقت يعرف بالنقد السياسي، الذي ينقد الوضع السائد بحجب الخليفة وقيام الحاجب بكل الأمور السياسية، ويرون أن ذلك من العجب

العجاب، فهذا إبراهيم بن إدريس الحسنى، والذي عاش إلى أيام الفتنة يخاطب المروانية بقرطبة متعجباً من استبداد ابن أبى عامر بالأمر قائلاً [1]:

فِيمَـــا أَرَى عَجَـــبٌ لِمَـــنْ يَتَعَجَّـــبُ ... جَلَّـــتْ مُـــصِيبَتُنَا وَضَـــاقَ المَـــذْهَبُ
إِنِّـــى لأُكْـــذِبُ مُقْلَتِـــى فِيمَـــا أَرَى ... حَتَّـــى أَقُـــولَ غَلَطْـــتُ فِيمَـــا أَحْـــسِبُ
أَيَكُـــونُ حَيَّـــاً مِـــنْ أُمَيَّـــةَ وَاحِـــدٌ ... وَيَـــسُوسُ ضَـــخْمَ المُلْـــكِ هَـــذَا الأَحْـــدَبُ؟
تَمْـــشِى عَـــسَاكِرُهُمْ حَـــوَالَى هَـــوْدَجٍ ... أَعْـــوَادُهُ فِـــيهِنَّ قِـــرْدٌ أَشْـــهَبُ
أَبَنِـــى أُمَيَّـــةَ أَيْـــنَ أَقْمَـــارُ الـــدُّجَى ... مِـــنْكُم، وَمَـــا لِوُجُوهِهَـــا تَتَغَيَّـــبُ

وقد كان لاستبداد المنصور بالحكم وسيطرته الدائمة على الخليفة الشرعي وأمه صبح التي وصل عن طريقها إلى كثير مما أراد أثره الساخط في نفوس بعض الشعراء فقال بعضهم دون أن يصرح باسمه خوفاً من المنصور معبراً عن قلقه وتبرمه ونقده لذلك[2]:

أَبَنِـــى أُمَيَّـــةَ أَيْـــنَ أَقْمَـــارُ الـــدُّجَى ... مِـــنْكُم؟ وَأَيْـــنَ نُجُومُهَـــا وَالكَوْكَـــبُ؟
غَابَـــتْ أُسُـــودٌ مِـــنْكُم عَـــنْ غَابِهَـــا ... فَلِـــذَاكَ حَـــازَ المُلْـــكَ هَـــذَا الثَّعْلَـــبُ

ومن ذلك أيضاً قول بعضهم – ساخطاً وناقداً– على لسان الخليفة هشام[3]:

أَلَـــيْسَ مِـــنَ العَجَائِـــبِ أَنَّ مِثْلِـــي ... يَـــرَى مَـــا قَـــلَّ مُمْتَنِعَـــاً عَلَيْـــهِ
وَتُمْلَـــكُ بِاسْـــمِهِ الـــدُّنْيَا جَمِيعـــاً ... وَمَـــا مِـــنْ ذَاكَ شَـــىءٌ فِـــي يَدَيْـــهِ

(١)ابن حيان:المقتبس تحقيق إسماعيل العربي . ص ٨٧ .
(٢) المقرى: نفح الطيب ٢٨٦/١ .
(٣) ابن عذارى: البيان المغرب ٢٨٠/٢ .

ثم خلف المنصور ابنه عبد الملك الذي اتبع سياسة أبيه في النفوذ والتحكم والمحافظة على قوة الدولة ولكنه يموت سنة ٣٩٩ هـ فيخلفه في الحكم أخوه عبد الرحمن شنجول والذي كان سبباً من أسباب الفتنة .

كان عبد الرحمن شنجول دون أبيه وأخيه، فكان صغير السن كثير الشراب، يخالط الفاسقين والماجنين، وينتهك الحرمات ثم حاول أن يأخذ لنفسه ولاية العهد فضاق به الناس وبخاصة الأمويين، واستغلوا خروجه للغزو واتصلوا بمحمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر فقام بقرطبة وتغلب على الزاهرة ونقل أموالها إلى قصر قرطبة، وفر عبد الرحمن لكنه قبض عليه في نفس العام سنة ٣٩٩ هـ .

ويموت عبد الرحمن شنجول وقيام محمد بن هشام بالحكم تنتهي فترة الحجابة وتبدأ فترة الفتنة البربرية والتي كان للبربر دور كبير في إشعالها، وفترة الفتنة البربرية يمكن تقسيمها -تاريخياً- إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : (٣٩٩هـ-٤٠٧هـ) وهو عبارة عن منازعات داخلية وصراعات محلية بين الأمراء الأمويين أنفسهم من جهة، وبين الأمراء الأمويين والبربر من جهة أخرى حتى استعان على فريق بالمسيحيين مما أدى إلى فقدان بعض الحصون وتهدم بعض المدن .

أما القسم الثاني : (٤٠٧هـ-٤١٣هـ) فيمكن تسميته بالعهد الحمودي حيث تولى السلطة خلال هذه المدة بنو حمود (على والقاسم ويحيى) وهم من الأدارسة البربريين .

أما القسم الثالث والأخير :(٣١٤هـ-٤٢٢هـ) فكان بمثابة عهد الانحدار والتدهور نحو الكارثة بانتثار عقد الخلافة وقيام ممالك الطوائف في أنحاء الأندلس .

وإذا عدنا إلى بداية الفتنة وجدنا أن بابها الرئيس هو محمد بن هشام بن عبد الجبار الذي تلقب بالمهدي واتخذ جنداً من العامة وقربهم وآثرهم على العبيد العامرين وعلى الطوائف البربرية بعد أن كان هؤلاء في عهد الحجابة مقدمين

على العرب أنفسهم، ومن ثم قاموا عليه والتقوا حول هشام بن سليمان الملقب بالرشيد إلا أن المهدي هزمهم وقتل الرشيد ففر البرابرة والتفوا حول سليمان بن الحكم بن الناصر، وكان بشقندة، وجعلوه إماماً لهم، وبايعوه وسموه المستعين بالله ونهضوا معه إلى شانجة بن غرسيه بن فرذلند وعاقدوه على أن يدخل سليمان قرطبة، فجاء معهم في عسكر عظيم من النصارى، وبرز لهم في جنده من العامة في موضع يسمى (قنتيش) فدارت الدائرة على المهدي وجنوده، ودخل سليمان قرطبة، وبويع بالخلافة، وقتل من أهل قرطبة ما نيف على عشرين ألفاً وعاث النصارى في أرجاء المدينة [1].

وتعتبر معركة قنتيش من المعارك الحاسمة، فقد كانت أولاً قاضية على خلافة محمد بن هشام بن عبد الجبار الأولى، وكانت ثانياً مؤكدة لانقسام العسكر الأندلسي إلى قسمين : البربر في ناحية، والأندلسيين في ناحية أخرى [2]

وفي معركة قنتيش التي جرت بين سليمان المستعين والمهدي يقول ابن دراج [3]:

وَاسْتَوْدَعُوا جَنْبَى شُرُنْبَةَ وَقْعَةً	هَزَّ الجِبَالَ الرَّاسِيَاتِ رُعُودُهَا
دَلَفُوا إِلَى شَهْبَاءَ حَانَ حَصِيدُهَا	وَطَلَى رُؤُوسِ الدَّارِعِينَ حَصِيدُهَا
وَشِعَاب قَنْتِيشٍ وَقَدْ حُشِرَتْ لَهُم	أُمَمٌ بُغَاةٌ لاَ يُكَفُّ عَدِيدُهَا
تَرَكُوا بِهَا ظَهْرَ الصَّعِيدِ وَقَدْ غَدَا	بَطْنَاً، وَأَجْسَادُ العِدَاةِ صَعِيدُهَا
وَكَتَائِبُ الإِفْرِنْجِ إِذ كَادَتْكَ فِي	أَشْيَاعِهَا وَاللهُ عَنْكَ يَكِيدُهَا

(١) انظر هذه الموقعة في: ابن الأبار: الحلة ٦/٢، ابن بسام: الذخيرة ٢٣٠/١/١، ابن عذارى: البيان المغرب ٥١/٣، وفيه أن عدد القتلى نيف على الثلاثين ألفاً .

(٢) هنري بيرس: الشعر في عصر الطوائف ص ١٧ .

(٣) ابن بسام: الذخيرة ق١ م ١ ص ٦٣ .

وبعد أن دخل سليمان المستعين قصر قرطبة سنة ٤٠٠هـ وفر المهدي بعد هزيمته إلى أن لحق بطليطلة، كانت الثغور كلها باقية على طاعة المهدي ودعوته من طرطوشة قاصية شرق الأندلس إلى الأشبونة في غربها، ثم استجاش النصارى أيضاً وأقبل بهم إلى قرطبة، فخرج إليه سليمان فهزمه المهدي بموضع يعرف (بعقبة البقر) وهو حصن على عشرين كيلومتراً شمالي قرطبة إلى الجنوب الغربي، وبعد الموقعة دخل محمد بن عبد الجبار المهدي قرطبة وهرب منها البربر وبدأ خلافته الثانية [١] التي لم تدم طويلاً حيث انتهت بقتله سنة ٤٠٠ هـ، وعودة الخلافة إلى هشام بن الحكم (المؤيد) والذي غيبه المهدي مرة وادعى أنه مات ثم أظهره ثانية، وكان هشام يراسل البربر حتى يدخلوا في طاعته ولكنهم أبوا إلا نفراً من أهل قرطبة حتى اشتدت الفتنة وعاد سليمان المستعين إلى الخلافة سنة ٤٠٧ هـ .

لقد كان للصراع المرير والدائم بين أهل قرطبة والبربر وأثره السيئ في حصار البربر للمدينة من سنة ٤٠١هـ حتى سنة ٤٠٣ هـ حيث استسلمت المدينة وتم خرابها، واستباحت جيوش البربر مدينة الزهراء وتركتها طعمة للنيران، فحرك ذلك الحدث قريحة الشعراء فقاموا يبكون مدينتهم، ومن ذلك يقول أحد الشعراء مقارناً بين ماضيها الجميل وحاضرها التعس [٢]:

أبْـــكِ عَلَـــى قُرْطُبَـــةَ الـــزَّيْنِ ... فَقَـــدْ دَهَتْهَـــا نَظْـــرَةُ العَـــيْنِ

أَنْظَرَهَـــا الـــدَّهْرُ بِأَسْـــلاَفِهِ ... ثُـــمَّ تَقَاضَـــى جُمْلَـــةَ الـــدَّيْنِ

كَانَـــتْ عَلَـــى الغَايَـــةِ مِـــنْ حُـــسْنِهَا ... وَعَيْـــشِهَا المُـــسْتَعْذَبِ اللَّـــيْنِ

فَـــانْعَكَسَ الأَمْـــرُ فَمَـــا أَنْ تَـــرَى ... بِهَـــا شُـــرُوراً بَـــيْنَ اثْنَـــيْنِ

فَاغْـــدُ وَوَدِّعْهَـــا وَسِـــرْ سَـــالِمَاً ... إِنْ كُنْـــتَ أَزْمَعْـــتَ عَلَـــى البَـــيْنِ

(١) ابن الأبار: الحلة السيراء ٧/٢ .

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب ١١٠/٣ .

ولنترك أهل قرطبة وما حدث لمدينتهم من نكبة كبرى، لنعود إلى البربر وما أحدثوه في تلك الفترة الوجيزة من ثورات وفتن عجز الأمراء الأمويون عن التصدي لها، فبلغوا بذلك شأواً عظيماً أفسد الأحوال الاجتماعية والنظم السياسية، كما أخبرنا بذلك عبد الرحمن المرتضى المرواني الذي يدعو قومه أن يهبوا في مواجهتهم حتى يستقر ملكهم وتنعم أحوالهم [1]:

قَدْ بَلَغَ البَرْبَرُ فِينَا بِنَا ... مَا أَفْسَدَ الأَحْوَالَ وَالنُّظُمَا
كَالسَّهْمِ لِلطَّائِرِ لَوْلاَ الَّذِي ... فِيهِ مِنَ الرِيشِ لَمَا أَصْمَى
قُومُوا بِنَا فِي شَأْنِهِم قَوْمَةً ... تَزِيْلَ عَنَّا العَارَ وَالرَّغْمَا
إِمَّا بِهَا نَمْلِكُ أَوْ لاَ نَرَى ... مَا يَرْجِعُ الطَّرْفُ بِهِ أَعْمَى

وهكذا لعب البربر دوراً كبيراً في هذه الفترة الوجيزة والتي تنتهي بقيام دول الطوائف، وانقسام الأندلس إلى عدة ممالك، ومن يتأمل فترة الفتنة البربرية يلاحظ أنها تتميز بالأحداث الداخلية الكثيرة، وتبادل الحكم فيها بين الأمويين والحموديين حتى أن ثلاثة وعشرين عاماً هي عمر الفتنة البربرية قد شهدت ولاية تسعة من الخلفاء، ستة من البيت المرواني، وثلاثة من بني حمود، وأن أكثر هؤلاء تنصبوا على عرش الخلافة مرتين، وانتهوا كلهم إلى ميتة فاجعة مقتولين على أبشع صورة [2].

كما تتسم هذه الفترة من الناحية السياسية أيضاً بالفوضى والصراع الدموي للوصول إلى السلطة، بيد أنها تفتقر من الناحية الأدبية إلى الشعر السياسي الجاد والهادف من توحيد الصفوف، والوقوف وراء إمام للمسلمين، والدعوة إلى نبذ الخلافات العرقية والجنسية التي كانت سبباً في دخول الأسبان قرطبة .

أما الشعراء الذين تحدثوا عن الفتنة فكانوا قلة، وجاء شعرهم منحصراً في وصف معركة، أو بكاء مدينة، أو التحسر على الفرقة، أو الدعوة إلى إزالة البربر

(١) المقري(الشيخ أحمد بن محمد بن أحمد المقري التلمساني): نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ٤٣٠/١ تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار صادر، الطبعة الأولى سنة ١٩٦٨م .
(٢) الدكتور/ محمود على مكي: مقدمة المقتبس ص ٢٥ .

كما فعل المرتضى المروانى، أو الحديث عن فترة الفتنة وكأنها عهد جاهلية كما يقول ابن دراج القسطلي في الأبيات التالية [1]:

فَسَكِرْتُ وَالأَيَّامُ تَسْلِبُ جِدَّتِى ... وَالدَّهْرُ يَنْسِجُ لِى ثِيَابَ سِلاَبِى
سُكْرَيْنِ مِنْ خَمْرٍ كَانَ خُمَارُهَا ... فَقْدَ الشَّبَابِ وَفُرْقَةَ الأَحْبَابِ
لِمَدَىً تَنَاهَى فِي الغِوَايَةِ فَانْتَهَى ... فِيْنَا إِلَى أَمَدٍ لَهُ وَكِتَابِ
وَهَوَىً تَقَاصَرَ بِالْمُنَى فَأَطَالَ بِى ... هَمًّا إِلَى قَلْبِى سَرَى فَسَرَى بِى
فِي جَاهِلِيَّةِ فِتْنَةٍ عُبِدَتْ بِهَا ... دُونَ الإِلَهِ مَضَلَّةُ الأَرْبَابِ
تَسْتَقْسِمُ الأَزْلاَمَ فِي مُهَجَاتِنَا ... وَتُسِيلُ أَنْفُسَنَا عَلَى الأَنْصَابِ
غِيَراً مِنَ الأَيَّامِ أَصْبَحَ مَاؤُهَا ... غَوْراً وَأُعْقِبَ صَفْوُهَا بِعقَابِ
وَبَوَارِقاً لِلْغَيِّ أُضْرِمَ نُورُهَا ... نَاراً وَصَابَ غُمَامُهَا بِالصَّابِ

هذا بالإضافة إلى بعض المدح الذي وجه إلى بني حمود لما استقلوا بالخلافة (٤٠٧هـ-٤١٣ هـ) أمثال ابن شهيد ومدحه المعتلي يحيى بن حمود، وابن مقانا الأشبونى ومدحه إدريس بن يحيى .

وفي نهاية الفتنة يكاد شعر العصبية القبلية والعرقية أن ينعدم نظراً لتوجه بعض الشعراء إلى النثر مثل ابن شهيد وابن حزم وغيرهما لأنهم رأوا أنه لا مستقبل لهم، بالإضافة إلى عبث الخلفاء الأمويين ومجونهم مما جعل الشعراء ينصرفون عنهم، حتى انتهت الفتنة وقام عصر جديد من عصور الأندلس شهد نهضة أدبية عالية وإن كان منحطاً من الناحية السياسية وهو عصر ملوك الطوائف .

(١) ابن دراج: ديوانه ص١٥٢ تحقيق الدكتور محمود على مكي ، طبعة المكتب الإسلامي ، الطبعة الثانية ، سنة ١٣٨٩هـ .

ثالثاً :العصبيات القبلية والعرقية وأثرها في عهد ملوك الطوائف

لقد خلفت فترة الفتنة في الأندلس انشقاقاً في صفوف الجماعة، وانصداعاً في بنيان الأمة، حيث استولت كل جماعة على ما بيدها من أراض ومقاطعات، فتعددت الإمارات وكثر الثوار وتفرقت كلمة الجماعة المتمثلة في خليفة واحد، ومن ثم اضطربت البلاد اضطراباً سياسياً كبيراً.

ولعل أحد العوامل المهمة في ذلك الانشقاق يرجع إلى العصبية العرقية بين العرب والبربر والصقالبة ،وذلك بعد ذوبان العصبية القبلية إلى حد كبير فى هذا العصر والعصر السابق عليه، وهذا ما أشار إليه هنري بيريس في قوله: « كان العرب حتى منتصف القرن العاشر الميلادي ينقسمون إلى فرعين يتخاصمون غالباً : المضريون واليمنيون أو القيسيون والكلبيون، وفي مصطلح ثالث العدنانيون والقحطانيون، ثم بدأوا يفقدون إحساسهم بأصولهم الشرقية القائمة على مفهوم الانتماء إلى قبيلة معينة معينة، وتخلوا تدريجياً عن أنسابهم العرقية التي ارتبطت بوجودهم بدوا نصف حضريين وقد هجروها منذ زمن طويل، وما لبثوا أن اتخذوا لهم أنساباً تذكر بالمكان الذي ولدوا فيه، مدينة أو قرية أو ضيعة أو كورة، وفيما يبدو هنا يكمن الدافع الأساسي الذي يظهر بوضوح تطور العرب في أسبانيا من مرحلة البداوة إلى مرحلة الاستقرار ، ويوصف الشخص بأنه فقيه أو قاضٍ أو قائد أو وزير أو شاعر أو أديب قبل أن يكون مخزومياً أو قيسياً أو قرطبياً أو إشبيلياً ، وقد تعلق العربي بالأرض ، وهذا ما جعله يفقد الصفات التي يعتبرها ابن خلدون أساسية في قيام الممالك وبقائها ، وهذا التغيير في شعوره نحو الأرض وهو ليس بعيداً عن الإحساس بالوطنية ، ودعمه قليل من الكفاح والمعاناة المشتركة ، تعاونت كلها على تقوية الوجود الحقيقي ،
وأشاعت الإخاء بين أفراد المجتمع » .[1]

(١) هنري بيريس: الشعر الأندلسي في عصر الطوائف ص ٢٣٠، طبعة دار المعارف، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .

ويواصل هنري بيريس حديثه موضحاً ذوبان العصبية القبلية لدى أفراد المجتمع وفي مقابل ذلك مدى حرص الأمراء على التمسك بها والبحث عن الأصول العرقية العربية لكل منهم يقول هنري بيريس : « وكان هذا التغيير العميق في بناء الجماعات العربية من عمل المنصور بن أبي عامر ، طبقاً لفقرة أوردها ابن غالب في كتابه " فرحة الأنفس " ، ونقلها لنا المقري في " نفح الطيب " (*) ولكن يبدو أن المنصور بدل أن يسبق الحوادث ويدعو إلى الإصلاح بأمر منه نفسه ، آثر في سياسة فطنة أن يبقي الأمر في الجيش على ما كان عليه الحال واقعاً في المجتمع .

وأدرك المهتمون بدراسة الأنساب أن الأسر التي تنتمي إلى القبيلة الواحدة ، أو البطن الواحد ، تفرقت على امتداد كل الأراضي الإسبانية ، وذلك يمثل أيضاً إحدى الخصائص الأكثر وضوحاً ، لأن بعض العناصر نسيت أصولها الأولى ، وأصبحت لا تولي هذا الموضوع أي اهتمام .

السبب المبدئي والجوهري لإهمال سلسلة الأنساب ، وكانت تمثل في الماضي الرابطة الاجتماعية الأقوى ، يجب أن نبحث عنه بين العدد المحدود من العرب الذين اتخذوا من أرض إسبانيا مقاماً ، لقد جاءوا إليها دون زوجاتهم ، واضطرتهم الحاجة إلى تكوين أسرة للزواج ، أو اتخاذ عشيقات من نساء إسبانيات ، وبعد عدة أجيال امتزجت دماء العرب بالدماء التي كان أصحابها يسكنون إسبانيا قبل الفتح ، وجعل منهم الدين واللغة إلى حد ما عرباً في الظاهر ، لكنهم واقعاً كانوا إسبانيين ، وإذا كان الجانب الأكبر من الشعب نسي أصوله العرقية، ولم يكن يهتم كثيراً بمعرفة الأنساب، فقد كان الأمراء

(*) أشار إلى هذه المسألة المقري(الشيخ أحمد بن محمد بن أحمد المقري التلمساني): نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ٢٩٣/١ تحقيق الدكتور إحسان عباس ، دار صادر ، الطبعة الأولى سنة ١٩٦٨م .

على النقيض يحاولون أن يرتفعوا بأنسابهم إلى جدودهم الأولين، ليبرهنوا على نقاء دمهم العربي».[١]

ولعل خير دليل على ذلك قول ابن اللبانة [٢] في مدح بني عباد مؤكداً نسبتهم العربية وأنهم إنما ينحدرون من نسل المنذر بن ماء السماء يقول ابن اللبانة : [٣]

مِنْ بَنِي الْمُنْذِرِبْنِ مَاءِ السَّمَاءِ زَادَ فِي فَخْرِهِ بَنُو عَبَّادِ

فِتْيَةٌ لَمْ تَلِدْ سِوَاهَا الْمَعَالِي وَالْمَعَالِي قَلِيلَةُ الأَوْلاَدِ

ويؤكد ذلك ابن عمار حين يرتفع بنسب المعتمد إلى قبيلة « لخم » العربية اليمنية حيث يقول [٤]

تَبَوَّأَ مِنْ لَخْمٍ وَنَاهِيكَ مَقْعَداً مَكَانَ رَسُولِ اللَّهِ مِنْ آلِ هَاشِمِ

وإذا كان ابن عباد يرجع فرعه إلى أصل عربي بشكل مؤكد، فإن بني الأفطس وهم ينحدرون من أصول بربرية على الأرجح قد طمحوا إلى شرف هذا الانتساب، ولهذا يعزوهم ابن شرف القيرواني إلى تجيب ويمدحهم بالعروبة، حتى قال ابن حيان في الممدوح المظفر بن الأفطس : « ومن النادر الغريب انتماؤه في تجيب، وبهذه النسبة مدحته الشعراء إلى آخر وقته »[٥].

---

(١) المرجع السابق: ص ٢٣٠، طبعة دار المعارف، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .

(٢) ابن اللبانة: هو أبو بكر محمد بن عيسى اللخمي الداني، كان صديقاً للمعتمد، وتوفي سنة ٥٠٧هـ، راجع في ذلك: ابن بسام:الذخيرة قي محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس ق٣ . م ٦٦٦/٢، طبعة دار الثقافة، بيروت، وكذا: الفتح بن خاقان: قلائد العقيان، تحقيق حسين يوسف خريوش ص ٢٤٤، مكتبة المنار بالأردن .

(٣) ابن الأبار: الحلة السيراء، حققه وعلق حواشيه الدكتور حسين مؤنس ٣٥/٢، الطبعة الثانية، دار المعارف، سنة ١٩٨٥م

(٤) الفتح بن خاقان:قلائد العقيان، تحقيق حسين يوسف خريوش ص٢٤٤، مكتبة المنار بالأردن .

(٥) ابن الأبار: الحلة السيراء، حققه وعلق حواشيه الدكتور حسين مؤنس ٣٥/٢، الطبعة الثانية، دار المعارف، سنة ١٩٨٥م .

يقول ابن شرف : [1]

يَـــا مَلِكَـــاً أَمْـــسَتْ تَجِيـــبٌ بِـــهِ تَحْـــسِدُ قَحْطَـــانَ عَلَيْـــهِ نِـــزَارْ
لَـــوْلاَكَ لَـــمْ تَـــشْرَفْ مَعَـــدٌ بِهَـــا جَـــلَّ أَبُـــو ذَرٍّ فَجَلَّـــتْ غِفَـــارْ

وهكذا ظل التعلق بالنسب العربي وبالقبيلة سائداً حتى عصر الطوائف وبخاصة في مديح الأمراء أو في فخرهم، أما سائر الشعب فحلت السمة الأندلسية محل الانتماء إلى القبيلة .

ولعل خير تعليق على حال الأندلس عقب الفتنة وحالة ملوك الطوائف ما قاله ابن الخطيب "«وذهب أهل الأندلس من الانشقاق والانشعاب والافتراق إلى حيث لم يذهب كثير من أهل الأقطار، مع امتيازها بالمحل القريب والخطة المجاورة لعباد الصليب، ليس لأحدهم في الخلافة إرث، ولا في الإمارة سبب، ولا في الفروسية نسب، ولا في شروط الإمارة مكتسب اقتطعوا الأقطار واقتسموا المدائن الكبار، وجبوا العمالات والأمصار، وجندوا الجنود، وقدموا القضاة، وانتحلوا الألقاب، وكتبت عنهم الأعلام، وأنشدهم الشعراء، ودونت بأسمائهم الدواوين، وشهدت بوجوب حقهم الشهود، ووقف بأبوابهم العلماء، وتوسلت إليهم الفضلاء، وهم ما بين محبوب وبربري مجلوب ومجند غير مجنوب، وغفل ليس في السرة بمحسوب، ما منهم من يرضى أن يسمى ثائراً، ولا لحزب الحق مغايراً، وقصارى أحدهم أن يقول (أقيم على ما بيدي حتى يتعين من يستحق الخروج به إليه) ولو جاء عمر بن عبد العزيز لم يقبل عليه، ولا لقي خيراً لوالديه، ولكنهم استوفوا في ذلك آجالاً وأعماراً، وخلفوا آثاراً، وإن كانوا لم يبالوا اغتراراً من معتمد

(١) ابن شرف (أبو عبد الله محمد . ت ٣٩٠- ٤٦٠هـ): ديوانه، تحقيق الدكتور حسن ذكري حسن ص٥٧-٦٠، نشر مكتبة الكليات الأزهرية، وكذا ابن بسام (أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني): الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق الدكتور إحسان عباس ق٢.ج٤/٤٧٩، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٠م

ومعتضد ومرتض وموفق ومستكف ومستظهر ومستعين ومنصور وناصر ومتوكل كما قال الشاعر [1] :

مِمَّا يُزَهِّدُنِي فِي أَرْضِ أَنْدَلُسٍ أَسْمَاءُ مُعْتَضِدٍ فِيهَا وَمُعْتَمِدِ

أَلْقَابُ مَمْلَكَةٍ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا كَالهِرِّ يَحْكِي انْتِفَاخاً صَوْلَةَ الأَسَدِ

وقد تعددت مناطق الأندلس من الناحية الإقليمية عقب الفتنة، وثار بكل منطقة صاحبها واستقل بها، وتلقب بلقب من الألقاب السلطانية، فهناك منطقة قرطبة، ومنطقة طليطلة أو الثغر الأوسط، ومنطقة إشبيلية غرب الأندلس، ومنطقة غرناطة، ومنطقة شرق الأندلس أو منطقة بلنسية، ومنطقة سرقسطة أو الثغر الأعلى .

فمنطقة قرطبة هي منطقة العاصمة القديمة، وكانت من أسبق المناطق استقلالاً، حيث كانت منطقة المنازعات والخلافات حول السلطة الشرعية، ولكن رئيسها أبا الحزم بن جهور استطاع أن يحسم الصراع الدائر حول السلطة، وينتزع الحكم لنفسه تحت مبدأ عام خضع له الجميع وهو مبدأ الشورى أو المشاورة .

وأما طليطلة فكانت عاصمة إسبانيا على أيام القوط، ولم تفقد أهميتها رغم انتقال العاصمة منها إلى قرطبة بعد انتشار الإسلام في الأندلس، ولكن قدر لها أن تكون أول المدن الكبرى الذاهبة عن حظيرة الإسلام .

وأما منطقة إشبيلية وغربي الأندلس فكان الفضل لاستقلالها يرجع إلى أسرة بني عباد القوية والتي انتهت بمأساة هي أيضاً .

ومنطقة غرناطة كانت من نصيب حبوس بن ماكسين البربري الصنهاجي ثم ابنه باديس من بعده ، هو الذي آثر اليهود والبربر على العرب، فكان له وزير يهودي يدعى اسماعيل بن النغرلة وخلفه من بعده ابنه يوسف، وتمكن شيئاً فشيئاً من باديس حتى أصبح الحكم الفعلي في يده، وباديس لا

(١) ابن الخطيب:أعمال الأعلام ص ١٤٤،والبيتان ينسبان لابن رشيق،وهما في ديوانه ص٦٥

يكاد يصحو من سكر حتى جاءت اللحظة المناسبة التي تطالب بالثورة، والتغيير عندما قال أبو إسحاق الإلبيري قصيدته المشهورة والتي فجرت الثورة يقول عنها غومث :« والحق أن القصيدة تستحق ما حظيت به من شهرة، ولا نعرف إلا في القليل النادر أن أبياتاً من الشعر لعبت دوراً سياسياً مباشراً في التاريخ السياسي لأمة من الأمم، فكهربت العزائم ودفعت بها في سرعة خاطفة إلى إشعال الحرائق، وشحذت السيوف إلى القتل كالدور الذي لعبته هذه، القصيدة[1]، لأن باديس تخير كاتبه ووزيره يوسف كافراً فاعتز اليهود به وحققوا طموحاتهم في غفلة من المسلمين حيث يقول [2]:

أَلاَ قُلْ لِصِنْهَاجَةَ أَجْمَعِين ... بُدُورِ النَّدَى وَأُسْدِ العَرِيْن

لَقَدْ زَلَّ سَيِّدُكُمْ زَلَّةً ... تَقَرُّ بِهَا أَعْيُنُ الشَّامِتِين

تَخَيَّرَ كَاتِبَهُ كَافِراً ... وَلَوْ شَاءَ كَانَ مِنَ المُسْلِمِين

فَعَزَّ اليَهُودُ بِهِ وَانْتَخَوْا ... وَتَاهُوا وَكَانُوا مِنَ الأَرْذَلِين

وَنَالُوا مُنَاهُمْ وَحَازُوا المُنَى ... فَحَانَ الهَلاكُ وَمَا يَشْعُرُون

وأما منطقة بلنسية فقد ملكها في مدة الطوائف الأولى خادمان من الموالى العامرية هما مبارك ومظفر، وكان من العجائب اشتراكهما في الملك حتى أنهما لم يمتازا إلا في الحرم خاصة كما يقول عنهما ابن الخطيب [3]

وَأَظْفَرَتْ أَمَالِي بِقَصْدِ مُظَفَّرٍ ... وَبُورِكَ لِي فِي حُسْنِ رَأْيِ مُبَارَكِ

ثم ملكها عبد العزيز بن المنصور (٤١١هـ-٤٥٢هـ) وخلفه ابنه عبد الملك ابن عبد العزيز الذي حدثت دفي عهده هزيمة البلنسيين من القشتاليين في موقعة

(١) غومث: مع شعراء الأندلس والمتنبى ص ١٣٤ ترجمة د/ الطاهر مكى .

(٢) الطاهر مكى: دراسات أندلسية للدكتور ص ٥٠ .

(٣) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ٢٥٥ .

بطرنة سنة ٤٥٧ هـ ولكن المأمون بن ذى النون أدرك البلنسيين وطارد النصارى ثم استولى على بلنسية وعين أبا بكر محمد بن عبد العزيز عليها حتى استولى عليها القادر بن ذي النون سنة ٤٧٨ هـ وفي عهده حدثت مأساة بلنسية على يد السيد الكنبيطور سنة ٤٧٨ هـ .

كان بجانب بلنسية في شرقي الأندلس ممالك أخرى كمملكة ألمرية،واشتهر بها بنو صمادح، ومملكة مرسية واشتهر بها ابن طاهر القيسى،
ومملكة دانية والجزائر الشرقية لمجاهد العامرى .

وأما مملكة بطليوس فكانت من نصيب بني الأفطس الذين ينتمون إلى قبيلة كتامة المغربية، ومع ذلك كانوا يرجعون نسبتهم إلى قبيلة بني تجيب العربية، ودارت بينهم وبين ابن عباد حروب كثيرة انتهت بهزيمتهم .

وأخيراً منطقة سرقسطة أو الثغر الأعلى التي كانت من نصيب بني تجيب أولاً ثم بني هود ثانياً حيث دارت معارك كثيرة بين بني ذي النون وبني هود انتهت بهزيمة الأول، ولمنطقة سرقسطة أهمية سياسية كبيرة حيث وقع فيها حادث بربشتر سنة ٤٥٦هـ الذي أدى إلى سقوط المدينة، وكانت من أعمال يوسف المظفر أخي المقتدر أحمد، وسقطت على يد النورمانديين الذين حاصروها مدة أربعين يوماً ثم دخلوها، ومع ذلك لم ينجد المظفر أخوه المقتدر، ولكن المدينة استردت مرة أخرى سنة ٤٥٧ هـ [١].

كانت المناطق السابقة تتنافس فيما بينها من أجل اقتطاع جزء من أرض الغير، أو الاستيلاء على مملكته حتى لو أدى الأمر إلى معاهدة النصارى أو دفع الجزية لهم فاضطربت الأوضاع السياسية وشاع العداء بين الأمراء المسلمين حتى أجمل لنا شاعر معاصر لهم هو أبو الحسن جعفر بن إبراهيم المعروف بابن الحاج اللورقى مأساتهم في الأبيات التالية[٢] :

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ١٧١ .

(٢) ابن الأبار: الحلة السيراء ١٠١/٢، ١٠٢ .

كَـمْ بِالمَغَـارِبِ مِـنْ أَشْـلاءِ مُخْتَـرَمِ وَعَـائِرُ الجَـدِّ مَـصْبُورٌ عَلَـى الهُـونِ
أَبْنَـاءُ مَعْـنٍ وَعَبَّـادٌ وَمَـسْلَمَةٌ وَالحِمْيَـرِيَّيْنِ بَـادِيسٍ وَذِي النُّـونِ
وَأَحْـوالُهُم فِـي هِـضَابِ العِـزِّ أَبْنِيَـةٌ وَأَصْـبَحُوا بَـيْنَ مَقْبُـورٍ وَمَـسْجُونِ

ويفصح الشاعر ما آل إليه ملوك الطوائف من مذلة ومهانة حينما استسروا في دفع الجزية للمسيحيين صاغرين، وظلوا بها دونهم ليبقى لهم أمر البلاد التي اقتطعوها من أرض الأندلس الممزقة، وكأنهم لا يهتمون إلا بالبقاء في الحكم، ولو كان هذا على أشلاء الدين والوطن، إن الشاعر يسخر من أخلاقهم الدنيئة ومسالمتهم المهينة [1] وذلك حينما يقول[2] :

نَـادِ المُلُـوكَ وَقُـلْ لَهُـمْ مَـاذَا الَّـذِي أَحْـدَثْتُمُ
أَسْـلَمْتُمُ الإِسْـلاَمَ فِـي أَسْـرِ العِـدَا وَقَعَـدْتُمُ
وَجَـبَ القِيَـامَ عَلَـيْكُمُ إِذْ بِالنَّـصَارَى قُمْـتُمُ
لاَ تُنْكِـرُوا شَـقَّ العَـصَا فَعَـصَا النَّبِـيِّ شَـقَقْتُمُ

وأيضاً ينقد أحوال ملوك الطوائف وأنهم خذلوا الإسلام، وليس أمامه إلا الصبر على هذا الوضع الجائر لعل الأيام تغيره [3]:

رَجَوْنَـاكُمْ فَمَـا أَنْـصَفْتُمُونَا وَأَمَّلْنَـاكُمْ فَخَـذَلْتُمُونَا
سَنَـصْبِرُ وَالزَّمَـانُ لَـهُ انْقِـلابٌ وَأَنْـتُم بِالإِشَـارَةِ تَفْهَمُونَـا

كما انتقد وضعهم السياسي أبو تمام غالب بن رباح المعروف بالحجام قائلاً [4]:

(١) الدكتور على محمد سلامة : الأدب العربي في الأندلس ص١٣٦،١٣٧ الدار العربية للموسوعات.
(٢) ابن بسام: الذخيرة ق١م٢ /٨٨٥ .
(٣) المصدر السابق . الصفحة نفسها .
(٤) ابن بسام: الذخيرة ٣/٩٤ .

كَـــأَنَّ بِلاَدَهُـــمْ كَانَـــتْ نِـــسَاءً تُطَالِبُهَـــا الـــضَّرَائِرُ بِـــالطَّلاَقِ

إذن فملوك الطوائف الذين أعقبوا الفتنة البربرية، وكان لكل ملك إمارته المستقلة وسياسته الخاصة التي تقوم أساساً على توسيع رقعة مملكته بالاعتداء على الجار المسلم وعدم الوقوف ضد العدو الخارجي الذي كان يتربص بهم في كل لحظة وهم يرتمون في أحضانه بالتعاون معه مرة، ويدفع الجزية مرة أخرى كما فعل عبد الله بن بلقين أمير غرناطة الذي عقد صلات مع ألفونسو السادس لما شعر بخطر المرابطين فانهتز ذلك (الأذفونش) وقبل المال والهدايا وساعد عبد الله وقويت أطماعه وفي ذلك يقول السميسر [1]:

صـــاحب غرناطـــة ســـفيه وأعلـــم النـــاس بـــالأمور

صَـــانَعَ أَذْفُـــوْنَش وَالنَّـــصَارَى فَـــانْظُرْ إِلَـــى رَأْيِـــهِ الـــوَبِيْرِ

وَشَـــادَ بُنْيَانَـــهُ خِلاَفَـــاً لِطَاعَـــةِ اللهِ وَالأَمِـــيرِ

يَبْنِـــى عَلَـــى نَفْـــسِهِ سِـــفَاهَاً كَأَنَّـــهُ دُودَةُ الحَرِيـــرِ

دَعُـــوهُ يَبْنِـــى فَـــسَوفَ يَـــدْرِى إِذَا أَتَـــتْ قُـــدْرَةُ القَـــدِيرِ

وإذا كانت الأبيات السابقة تنبع من معين العصبية السياسية والدينية فإن كثيراً من نصوص الشعر في عصر ملوك الطوائف قد نبعت من منبع العصبية العرقية وبخاصة بين العرب والبربر ، إذ كان كل أمير من أمراء الطوائف يتعصب لبني قومه، فكان بنو زيزي بغرناطة يتعصبون لقوميتهم البربرية ، وكانت الجاليات العربية بغرناطة مهمشة مغبونة ، والعكس من ذلك في دولة بني عباد بأشبيلية، فعلى الرغم من أن كثيراً من البربر كانوا من رعيتهم ، بل كانوا يشكلون فريقاً من جند الدولة إلا أن بني عباد كانوا يتوجسون منهم خيفة ، ويستشعرون منهم عدم الإخلاص ، فالمعتمد بن عباد

(١) محمد عبد الله عنان: نقلاً عن البيان المغرب (مخطوط) .

في حياة أبيه المعتضد بعد أن أخفق في مهمة الاحتفاظ بـ « مالقة » وبعد أن خذله أصحابه وجنده ، خرج عنها إلى رندة كتب إلى أبيه في قصيدة طويلة يعتذر إليه ، ويلقي اللوم على أصحابه من البربر ، ويتهمهم بالغش وسوء الطوية وعدم الإخلاص ، ومنها قوله [1]:

مَـا الـذَّنْبُ إلاَّ عَلَـى قَـوْمٍ ذَوِي دَغَـلٍ ... وَفَّـى لَهُـمْ عَفْـوُكَ الْمَعْهُـودُ إذْ غَـدَرُوا

قَـــوْمٌ نَـــصِيحَتُهُمْ غِـــشٌّ ، وَحُـــبُّهُمُ ... بُغْـضٌ ، وَنَفْعُهُـمُ إنْ صَـرَّفُوا ضَـرَرُ

تَمَيَّـزَ الْغَـيْظُ فِـي الأَلْفَـاظِ إنْ نَطَقُـوا ... وَتَعْرِفُ الْحِقْدَ فِي الأَلْحَاظِ إنْ نَظَرُوا

ولم تكن هذه النظرة العربية المتوجسة تجاه أولئك البربر مقتصرة على أمراء بني عباد ، بل إن شعراءهم وصناعهم ورجال دولتهم كانوا يدركون ذلك ، فابن عمار وهو أحد رجال الدولة وكاتبها وأحد شعرائها له قصيدة طويلة يمدح فيها المعتضد عباد ويثني على موقف المعتضد الحازم تجاههم ، بل إنه ينسبهم إلى اليهود ، وربما يشير في ذلك إلى تعصب بني زيزي لهم ، وإسنادهم الوزارة

قول إن هؤلاء الملوك يمكن أن نسميهم ثوارا داخليين، لأن كل أمير أو ملك ثار بمنطقته واستقل بها بعد أن كانت السيادة والسلطة الشرعية في يد رجل واحد من قبل وهو الخليفة .

أما الحياة الأدبية في بلاطات هؤلاء الملوك فكانت على عكس الحياة السياسية تماماً، حيث شهدت تلك الفترة جمهرة كبيرة من الشعراء والكتاب، نهض الأدب على أيديهم وتقدم وازدهر رغم التباين الواضح بين هذه البلاطات، فمثلاً كانت ممالك إشبيلية وقرطبة وبطليوس وألمرية من أعتى الممالك وأحسنها شعراً

(١) المعتمد بن عباد : ديوانه ، ص ٣٨ ، تحقيق الدكتور حامد عبد الحميد ، والدكتور أحمد بدوي ، مطبعة دار الكتب المصرية ، الطبعة الثانية ، سنة ١٩٩٧م .

وشعراء، وبينما نجد بلاطاً كبلاط غرناطة لم يتردد عليه الشعراء ليمدحوا أمراءها البربر أو وزرائها اليهود، ولكن هذا قليل إذا قيس بالتقدم والازدهار الأدبي الذي شهده عصر ملوك الطوائف .

رابعاً: وسائل الأداء الفني

المعجم الشعري

تتميز اللغة الشعرية عن اللغة العلمية أو الإخبارية وكذلك عن لغة الحياة اليومية بأنها ليست لغة أحادية ترمى إلى مجرد نقل المعنى، وبالتالى فهي لا تفقد

قيمتها ولا طاقتها التعبيرية بمجرد النطق بها، بل هي خالدة خلود الزمن، فهى- إذاً- لغة تشكيل لا توصيل، ولغة إبداع لا إخبار .

وعلى ذلك فاللغة تمثل جوهر الفن الشعرى، فالشعر لا يبنى بالأفكار بل يبنى بالكلمات كما أكد مالارميه [1]، فاللغة بمستوياتها المختلفة الصوتية، والإيقاعية، والمعجمية، والتركيبة، والدلالية إنما تشمل جميع عناصر التشكيل الفنى في الشعر . وهذا الإقرار بلغوية الشعر إنما يحيل إلى أهمية اللغة ودورها في موضوع أفكار الشاعر وترجمة مشاعره وتشكيل موضوعه الشعرى .

وتمثل الكلمات أو الألفاظ المفردة دائماً المادة الخام، أو اللبنات الأولى التي يتشكل من خلالها العمل الشعرى، ومن ثم فإن دراسة شعر العصبية إنما يفرض على الدارس أن يبدأ بذلك المستوى المعجمي أولاً، وأن يسعى إلى وصف السمات العامة والأساسية له من حيث السهولة والجزالة، والرقة والحدة العاطفية، ومن حيث منابع الألفاظ أو حقولها الدلالية، ومن حيث دلالات الألفاظ وظلالها الإيحائية داخل سياقاتها في النص، ويمكن للناقد أن يعالج تلك السمات جميعاً من خلال البحث عن الحقول الدلالية الأساسية في ألفاظ ذلك التيار الشعري .

ويمكن للدارس أن يرصد في شعر ذلك الاتجاه ثلاثة حقول دلالية غالباً ما تتردد ألفاظها بكثرة، كما تمثل مركز الثقل الدلالي في نصوصه، يتمثل أولها في ألفاظ الموت والقتال وأسلحته ومتعلقاته، ويتمثل الثاني في ألفاظ القدح والهجاء والهوان والفساد، ويتمثل الثالث في أسماء القبائل والأجناس والأعراق وأعلام الأشخاص والوقائع التاريخية .

---

(١) جون كوين: بناء لغة الشعر ترجمة الدكتور أحمد درويش ص ٥٦ دار المعارف بمصر الطبعة الثالثة ١٩٩٣ .

فأما ألفاظ الحقل الأول الدال على الموت والقتال فهي شائعة في معظم تلك النصوص فمواقف العصبيات القبلية والعرقية وما نتج عنها من فتن وصراعات لا تخلو أبداً من ذكر القتال أو التهديد به، أو ذكر وقائعه وأحداثه، وتتلون تلك الألفاظ حسب سياق الموقف الواردة فيه، فحين نقرأ أبيات حبيب بن عبد الملك الأموي محرضاً عبد الرحمن بن معاوية الداخل لقتل زعيم اليمنية أبى الصباح اليحصبي الذي رفع راية العصيان وهى قوله (١) :

يا ابن الخلائف إنِّى ناصحٌ لكمُ ... في قتلِ ذى إحَنٍ يرتادُ للنقمِ

لا يَفْلتَنْكَ فيأتينا ببائقةٍ ... أشدُدْ يديكَ بهِ تبرأْ منَ السَّقمِ

جَلِّلهَ غصباً من الهنْدىِّ ذا شُطَبٍ ... إنَّ الصَّرامَةَ فيهِ فعلةُ الكرمِ

نجد ألفاظ الأبيات تدور حول حقل دلالي واحد يتمثل في القتل ممثلاً في (قتل ذى إحن- لا يفلتنك- اشدد يديك به- جلله غصباً- الصرامة) ويرتبط بها ألفاظ المحن (النقم- بائقة- السقم) وألفاظ السلاح الدالة على اسم السيف وصفاته (غصباً- ذا شطب- الهندي) وقد أدت هذه الألفاظ جميعاً دورها في تدعيم فكرة التحريض

(١) ابن الأبار: الحلة السيراء ٥٩/١ .

وجعل قتل ذلك الخارج الثائر ضرورة حتمية لا مفر منها .

وإذا كانت ألفاظ الموت السابقة جاءت في سياق التحريض فإنها في أبيات الأمير الأموي الحكم بن هشام في أهل قرطبة بعد ثورة الربض وقضائه عليها إنما تأتى في سياق الفخر ببطولته والتشفي في أعدائه والإزراء بهم :

رَأَيْتُ صُدُوعَ الأَرْضِ بِالسَّيْفِ رَاقِعَاً ... وَقِدْمَاً لأَمْتُ الشِّعْبَ مُذْ كُنْتُ يَافِعَا

فَسَائِلْ ثُغُورِي هَلْ بِهَا اليَوْمَ ثَغْرَةٌ ... أُبَادِرُهَا مُسْتَنْضِيَ السَّيْفَ دَارِعَا

وَشَافِهْ عَلَى الأَرْضِ الفَضَاءِ جَمَاجِمَاً ... كَأَقْحَافِ شِرْيَانَ الهَبِيدِ لَوَامِعَا

تُنَبِّئْكَ أَنِّي لَمْ أَكُنْ عَنْ قِرَاعِهِمْ ... بِوَانٍ وَأَنِّي كُنْتُ بِالسَّيْفِ قَارِعَا

وَأَنِّي إِذَا حَادُوا جُزَاعَاً مِنَ الرَّدَى ... فَلَمْ أَكُ ذَا حَيْدٍ مِنَ الْمَوْتِ جَازِعَا

ونلاحظ في الأبيات ألفاظ الموت (الردى–الموت–جماجم) وألفاظ القتال (مستنضى السيف–قراعهم–قارعا) فضلاً عن تكرار لفظة السيف ثلاث مرات عبر نسيج الأبيات مما يغذى شعور الأمير بالزهو، ويشبع شعوره بالتشفي .

وتستولي ألفاظ الموت والقتال على القصائد الطوال في تلك الفتن العديدة، وهى ظاهرة لا تحتاج إلى دليل، فحين نقرأ أبياتاً من قصيدة سعيد بن جودي في وقعة جعد يصف انهزام المولدين وتنكيل قومه من العرب بهم : (١)

قَدْ طَلَبْنَا بِثَأْرِنَا فَقَتَلْنَا ... مِنْكُمُ كُلُّ مَارِقٍ وَعَنِيدِ

وَقَتَلْنَاكُمُ بِيَحْيَى وَمَا إِنْ ... كَانَ حُكْمُ اللهِ بِالمَرْدُودِ

هِجْتُمْ يَا بَنِي العَبِيدِ لِيُوثَاً ... لَمْ يَكُونُوا عَنْ ثَأْرِهِمْ بِقُعُودِ

فَاصْطَلُوا حَرَّهَا وَحَرَّ سُيُوفٍ ... تَتَلَظَّى عَلَيْكُمُ كَالوَقُودِ

لَمْ تَزَالُوا تَبْغُونَهَا عِوَجَاً ... حَتَّى وَرَدْتُمُ لِلمَوتِ شَرَّ وُرُودِ

(١) ابن حيان:المقتبس. راجع القصيدة كلها لديه .

فمن ألفاظ الموت (فقتلنا- وقتلناكم - فاصطلوا حرَّها - وردتم الموت) وألفاظ الثأر والانتقام (بثأرنا - ثأرهم) وترتبط بها ألفاظ مثل (هجتم ليوثاً- حر سيوف- تتلظى كالوقود-شر ورود)، وتتضمن الأبيات ألفاظاً من الحقل الدلالي الثاني التي تدور حول صفات الفساد والبغي والقدح مثل (مارق- عنيد- تبغونها عوجاً- يا بني العبيد) وهى تدور في فلك البغي والعدوان فضلاً عن ضعة النسب وضآلة الشأن، وتتآزر الألفاظ في تحقيق الدلالة الكلية التي تجمع بين وصف سوء أفعالهم، وقبح مآلهم .

وإذا كانت ألفاظ القدح والفساد في الأبيات السابقة قد جاءت في سياق التقريع والتشفي الذي يتوجه به الشاعر إلى أعدائه فإنها في أبيات الشاعر غريب بن عبد الله مخاطباً قومه من أهل قرطبة لائماً إياهم بعد إخفاق ثورتهم وهزيمتهم أمام الأمير الحكم بن هشام الأموي، وبالتالي فهي تأتى في سياق اللوم والتقريع والتحسر : (١)

يَـا أَهْـلَ قُرْطُبَـةَ الَّـذِينَ تَوَاكَلُـوا ... جِـدُّ الـدِّفَاعِ مِـنَ التَّوَاكُـلِ أَفْـضَلُ

جَـدُّ الـدِّفَاعِ لَـوَ أَنَّكُـمْ دَافَعْـتُمُ ... يَـوْمَ الْهَيَـاجِ لَكُـمْ أَعَـزُّ وَأَجْمَـلُ

إِنَّ التَّوَاكُـلَ وَهْنَـةٌ وَمَذَلَّـةٌ ... وَالْجِـدُّ فِيـهِ الـصُّنْعُ وَالْمُتَـسَهِّلُ

يَـا أَهْـلَ قُرْطُبَـةَ الْمُبَـاحُ حِمَـاهُمُ ... أَوْرَثْتُمُـونِى حَـسْرَةً مَـا تُحْمَـلُ

وتدور الألفاظ في فلك القدح والطعن عليهم من خلال وصفهم بمجموعة من الصفات الدالة على العجز والتواكل (تواكلوا- إن التواكل- لو أنكم دافعتم) والصفات الدالة على الذل والهوان (وهنة- مذلة- المستباح حماهم) .

---

(١) حيان بن خلف بن حيان القرطبي (٣٧٧هـ -٤٦٩هـ): المقتبس - السفر الثاني ص١٧٤ تحقيق الدكتور محمود على مكي ط مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م .

أما ألفاظ الحقل الدلالي الثالث فتتألف من أسماء القبائل والشعوب والأجناس والأعلام والوقائع التاريخية، وهى ذات صلة كبيرة بموضوع العصبيات إذ تمثل تلك الأسماء المحاور الأساسية أو الوقود الفعال في هذا الصنف من الشعر كما تتشكل الوظيفة الدلالية لتلك الأسماء في كل نص حسب سياق النص وموقف قائله .

ففي أبيات أبى الخطار الكلبي زعيم اليمنية مخاطباً خليفة بني أمية الذي رفع القيسية على اليمنية في الأندلس رغم أفضال اليمنيين على بني أمية ونصرتهم إياهم في مرج راهط وتثبيتهم ملكهم : (١)

أَفَـأْتُم بَنِـي مَـرْوَانَ قَيْـسَاً دِمَاءَنَـا وَفِي اللهِ -إِنْ لَـمْ تُنْـصِفُوا -حَكَمٌ عَـدْلُ
كَـأَنَّكُمْ لَـمْ تَـشْهَدُوا مَـرْجَ رَاهِـطٍ وَلَمْ تَعْلَمُـوا مَـنْ كَـانَ ثَـمَّ لَـهُ الْفَـضْلُ

فمحور الدلالة في البيتين يتمثل في (قيس- اليمنية) معبراً عنها بضمير المتكلم في (دماءنا) ويتوسط بينها (بنو مروان) خلفاء بني أمية الذين ينحازون إلى هؤلاء تارة وإلى أولئك أخرى، ويرد بعدها ذكر (مرج راهط) وهى الوقعة الشهيرة التي أعان فيها اليمنيون المروانيين على قيس وبالتالى فإن تلك الألفاظ إنما تدور في فلك الاحتجاج والانتصاف .

بيد أن تلك الأسماء تأتى في نصوص أخرى في إطار تكريس وحدة القبائل العربية والدعوة إلى نبذ الخلافات والاتحاد في مواجهة غير العرب من أصحاب الأعراق الأخرى التي أطمعها في العرب تفرقهم وتنازعهم، وبالتالى فهي انتقال من

(١) ابن الأبار (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي . ت ٦٥٨هـ): الحلة السيراء١/٦٤، ٦٥ حققه وعلق حواشيه الدكتور حسين مؤنس، الطبعة الثانية، طبعة دار المعارف، سنة ١٩٨٥م .

العصبية القبلية الضيقة إلى العصبية العرقية الأوسع، من ذلك قول الأسدي شاعر العرب يرد على العبلي شاعر المولدين من أهل الأندلس داعياً إلى وحدة العرب: (١)

إِذَا مَـــا اسْـــتَمْلأَتْ أَسَـــدٌ وَقَـــيْسٌ ... رَأَيْـــتَ الـــشِّرْكَ قَـــدْ خَـــضَعُوا وَذَلُّـــوا

وَمِـــنْ قَحْطَـــانَ وَالحَيَّـــيْنِ بَكْـــرٌ ... وَتَغْلِـــبُ أُسْـــدُ غَـــابٍ مَـــا تَفِـــلُّ

إذ يدعو فيها إلى نبذ العصبيات بين قحطان وعدنان، وبين قبائل عدنان ذاتها من قيس وربيعة، وبين قبائل ربيعة من بكر وتغلب، والتسامي فوق تلك الخلافات التي أضعفت شأنهم وأطمعت فيهم أعدائهم .

ويتشابه مع ذلك الدور الدلالي لأسماء القبائل العربية في الأبيات السابقة دورها في قصيدة أخرى للشاعر ذاته يدعو القبائل العربية جميعاً للوحدة والتماسك: (٢)

يَـا أَيُّهَـا العَـرَبُ فِـي أَقْـصَى مَحَلَّـتِهِم ... أَنْـتُم نِيَـامٌ وَمَـنْ يَـشْنَاكُمُ سَـهِرُ

مَـا عَـيْشُ عَـدْنَانَ دُونَ الحَـيِّ مِـنْ يَمَـنٍ ... أَوْ عَـيْشُ ذِي يَمَـنٍ قَـدْ خَانَهَـا مُـضَرُ

إِنَّ الـسِّهَامَ إِذَا مَـا فُرِّقَـتْ كُـسِرَتْ ... وَإِنْ تَجَمَّعْـنَ يَوْمَـاً لَـيْسَ تَنْكَـسِرُ

أَنْـتُمْ قَلِيـلٌ، كَـثِيرٌ فِـي غِنَـائِكُمْ ... وَغَيْرُكُـم قَلِيـلٌ فِـيكُمْ وَإِنْ كَثُـرُوا

أَلَـيْسَ مِـنْكُم نَبِـيُّ اللهِ أَكْـرَمُ مَـنْ ... بَـرَا الإِلَـهُ وَمَـنْ جَـاءَتْ بِـهِ الـسُّوَرُ

وَصَـاحِبَاهُ : أَبُـو بَكْـرٍ خَلِيفَتُـهُ ... وَخِدْنُـهُ المُرْتَـضَى مِـنْ بَعْـدِهِ عُمَـرُ

وَمَعْـشَرٌ هَـاجَرُوا فِـي اللهِ رَبَّهُـمُ ... وَالتَّـابِعُونَ وَمَـنْ أَوَوْا وَمَـنْ نَـصَرُوا

قُـلْ لِلْقَبَائِـلِ مِـنْ هُـودٍ وَمِـنْ أَدَدٍ ... تَقَبَّلُـوا النُّـصْحَ إِذْ قُلْنَـاهُ أَوْ فَـذَرُوا

(١) ابن حيان:المقتبس تحقيق إسماعيل العربي . ص ٨٥ .
(٢) السابق ص ٨٧ .

وتتضمن الأبيات أسماء الشعبيين أو الجدين الأساسيين لكل القبائل العربية (عدنان- ذو يمن) ليدلل على وحدة الأصول العربية وترابطها، ثم تتضمن أسماء بعض القبائل المتفرقة عنها (هود-أدد) إشارة إلى بعض القبائل على سبيل المثال، ثم أسماء أبرز أعلام العرب الذين صنعوا تاريخ الأمة العربية وأمجادها، ورفعوا اسمها فوق الأمم جميعاً وهم الرسول ﷺ وصاحباه أبو بكر وعمر، وإليهم يعود الفضل في انتشار الإسلام وفتح البلدان ، وسيادة العرب، فما أحرى تلك القبائل العربية المتنازعة أن يشعروا بوحدة أصلهم، وأهمية اتحادهم .

***

البناء الأسلوبي :

إذا كانت الألفاظ تمثل اللبنات الأولى في العمل الشعري، فإن المعنى الشعري لا ينسرب من الألفاظ بوصفها دوالاً مفردة قائمة بذاتها، بل يتشكل عبر دخولها في مقتضيات التركيب اللغوي، وخضوعها لضوابط النحو والتصريف، وعلى ذلك تمثل التراكيب اللغوية، والبنى الأسلوبية عاملاً حاسماً من عوامل تشكيل المعنى الشعري، ووسيلة مهمة من وسائل الأداء الفني في الشعر، وهذا ما يؤكده (يوري لوتمان) في قوله :«إن العناصر الصرفية والقاعدية بعامة تتمتع بمحتوى مستقل، إذ إنها في الشعر تعبر عن دلالات سياقية، كما تفضي بدرجة ملحوظة إلى إبداع الرؤية الشعرية للوجود» (١).

ولعل أبرز السمات النحوية والتركيبية في شعر العصبية القبلية والعرقية إنما يتمثل في تنوع التركيب الأسلوبي، والمزاوجة بين جمل الخبر التي تمثل الركيزة الأساسية للتعبير الشعري، والجمل الإنشائية المختلفة من نداء واستفهام وأمر ونهي، وهى التي تتخلل نسيج الأسلوب الخبري، وتتفاعل معه، ليسهم كلاهما تحول دلالات الآخر إلى عدد غير محدود من الدلالات الثانوية التي تتجاوز دلالاتها الحرفية الأولى .

و يأتي في مقدمة الجمل الإنشائية جمل النداء، وهو الأسلوب الذي يرهص بالخروج من دائرة الذات إلى دائرة الموضوع أو الآخر، ولا يحمل النداء – في الغالب– دلالة مستقلة في ذاته، بل تتجدد دلالاته من خلال التفاعل بين الجمل التالية للنداء وبين دلالاتها السياقية .

وقد دارت معظم جمل النداء في نصوص هذا التيار الشعري حولدلالات محددة منها التعظيم والحث والتحريض، ومنها الازدراء والتحقير، ومنها اللوم والتقريع والتحسر .

(١) يوري لوتمان: تحليل النص الشعري . ص ١١٣ .

فمن دلالات التعظيم في جمل النداء قول ابن رشيق القيرواني في مدح بني الأفطس وأميرهم المظفر ناسباً إياهم إلى قبيلة تجيب إحدى القبائل العربية :

يـــا ملكـــاً أمـــست تجيـــب بـــه		تحـــسد قحطـــان عليـــه نـــزار

ويمكننا كذلك أن نعد من دلالات التعظيم قول حبيب بن عبد الملك المرواني مخاطباً عبد الرحمن بن معاوية الداخل إبان فتنة أبي الصباح اليحصبي:

يـا ابـن الخلائـف إن ناصـح لكـم		في قتـل ذي إحـن يرتـاد للـنقم

فذلك النداء في صدر الأبيات تتحدد دلالته حسب سياق الأبيات بعده وحسب سياق الموقف العام في دلالة الثناء والتعظيم، لكنه لا يقف عند هذه الدلالة فحسب، بل إن الثناء فيه إنما يرمي إلى تهيئة نفس الأمير لتقبل جمل الأمر والنهي التالية لذلك النداء، وجميعها يدل على الحث والتحريض على قتل ذلك الثائر المغامر، وبالتالي فإن ذلك النداء يتشرب هو الآخر من دلالة الحث والتحريض .

ويعد من شواهد هذه الدلالة كذلك قول الأسدي شاعر العرب إبان الفتنة بين العرب والمولدين بالأندلس في رائية طويلة :

يا أيهـا العـرب في أقـصى محلـتهم		أنـــتم نيـــام ومـــن يـــشناكم ســـهر
ما عيش عدنان دون الحي مـن يمـن		أو عـيش ذي يمـن قـد خانهـا مـضر

إذ يستمد ذلك النداء دلالته من خلال متواليات النص بعده ممثلة في جمل الاستفهام والأمر وجمل الخبر وجميعها دالة على رفض الفرقة والخلاف والحث على الاتحاد والترابط في مواجهة الأعداء .

ومن تلك الشواهد كذلك قول أحد الشعراء مخاطباً رجال بني أمية في عهد وزارة المنصور بن أبي عامر :

أبـــني أميـــة أيـــن أقمـــار الـــدجى		مـــنكم وأيـــن نجومهـــا والكواكـــب
غابـــت أســـود مـــنكم عـــن غابهـــا		فلـــذاك حـــاز الملـــك هـــذا الثعلـــب

فالنداء الدال على تعظيم شأنهم وأمجادهم حين يلحق بهذا الاستفهام الإنكاري وذلك الخبر التحريضي فإنه يتحمل بدلالات الحث والتحريض لرجال بني أمية أصحاب الحق الشرعي في الحكم على إزاحة ذلك الوزير أو تقليم أظافره ووضعه في حجمه .

أما دلالات التحقير والازدراء في جمل النداء فإنها تأتى في سياق مخاطبة الأعداء والمخالفين، كما في قول سعيد بن جودي في مخاطبة المولدين بعد انتقام العرب منهم لغدرهم بيحيى بن صقالة وقتلهم إياه :

هجتم يا بني العبيد ليوثاً		لم يكونوا عن ثأرهم بقعود
فاصطلوا حرَّها وحرَّ سيوف		تتلظى عليكم كالوقود

إذ تنقلب دلالة النداء (يا بني العبيد) من خلال السياقين اللغوي والحالي إلى الدلالة على الإزراء بهم، والتحقير من شأنهم لغدرهم وتلونهم، والدلالة كذلك على التشفي فيهم والشماتة بهم لهزيمتهم وانكسارهم أمام قومه .

أما دلالات اللوم والتقريع فتأتي غالباً في سياق مخاطبة الشاعر لقبيلته أو لقومه لا لأعدائه، وتكون في حال انهزامهم وانكسارهم أمام أعدائهم، أو تقصيرهم وتخاذلهم وإخفاقهم في تحقيق أهدافهم المرجوة، ومن ذلك تلك اللامية الطويلة التي وجه بها الشاعر غريب الطليطلي إلى أهل قرطبة بعد فشل ثورة الربض على سلطان الحكم بن هشام الأموي، إذ تأتي جملة النداء الموجهة إليهم (يا أهل قرطبة) في مطلع النص دالة على لوم الشاعر لهم وتقريعه إياهم لتواكلهم وانخزالهم :

يا أهل قرطبة الذين تواكلوا		جد الدفاع من التواكل أفضل

إلا أن هذه الجملة من النداء (يا أهل قرطبة) تصبح ظاهرة أسلوبية لافتة ذات دلالة مقصودة، من خلال تكرارها سبع مرات خلال سبعة أبيات متوالية على غرار قوله :

يا أهل قرطبة المباح حماهم		أورثتموني حسرة ما تحمل
يا أهل قرطبة العظيم بلاؤهم		أمسيت من طول الأسى ما أعقل
يا أهل قرطبة الذين لذلهم		أهوى لو ان الترب فوقي يجعل

فذلك النداء المتكرر الذي يشبه لحناً حزيناً يلح الشاعر على ترديده وترجيعه، يسهم في ترسيخ دلالات اللوم والتقريع لهؤلاء على تخاذلهم واستسلامهم، ودلالات الأسى والحسرة كذلك على تلك الآمال الضائعة في إزاحة ذلك الجور الجاثم على صدور أولئك العامة من أهل قرطبة .

ثم إن الشاعر يختم القصيدة بتلك الجملة ذاتها ليجمع فيها بين دلالات الأسى والتحسر ودلالات الاستغاثة بعدل الله تعالى ورحمته ليتداركهم بعد إخفاقهم وإذلالهم :

يا أهل قرطبة العظيم بلاؤهم		عوذوا برب عادل لا يغفل

أما جمل الاستفهام الواردة في نصوص التيار الشعري فتنحصر دلالاتها التي تتحدد عبر سياقها النصي والحالي في دلالتي التقرير أو الإنكار فمن شواهد الدلالة الأولى قول ابن عبد ربه في مدح الخليفة عبد الرحمن الناصر بعد قضائه على ثورة أهل (استجة) وانتفاضهم على حكمه:

ألم تره أردى باستجة العدا		فلاقوا عذاباً كان موعده الصبح

فالدلالة تنقلب عبر السياق من الاستفهام بمعناه الحقيقي إلى الدلالة على تقرير الحقيقة الواقعة، وإثبات ما فعل الخليفة بالثائرين على حكمه، لكن هذا التقرير لا يقف هو الآخر عند دلالته المباشرة، بل يتحول إلى دلالات إبداء الإعجاب وإسداء المدح والثناء .

ومن شواهد تلك الدلالة التقريرية للاستفهام قول الحكم بم هشام الأموي بعد نجاحه في القضاء على ثورة الربض بقرطبة متسائلاً :

فسائل ثغوري هل بها اليوم ثغرة		إبادرها مستنضي السيف دارعاً

إذ تنقلب دلالة هذا الاستفهام إلى تقرير الواقع، وإثبات ما فعل من إخماد الثورة وتأمين الثغور، ومن ثم تتحول دلالة التقرير مرة أخرى إلى الدلالة على الفخر والتباهي بالبسالة والصمود، ويتشابه مع تلك الدلالة قول الشاعر قرب نهاية القصيدة ذاتها متسائلاً بعد أن وصف ما فعل بالثائرين من تقتيل وتشريد:

وهل زدت أن أدميتهم صاع قرضهم		فوافوا منايا قدرت ومصارعاً

وبالتالي ينقلب الاستفهام إلى تقرير، ويتحول التقرير ثانية إلى المباهاة بشجاعته من ناحية، وبالتشفي في أعدائه من ناحية أخرى .

أما الدلالة الثانية لجمل الاستفهام وهي المتمثلة في الرفض والإنكار فمن شواهدها قول الأسدي شاعر العرب مخاطباً قبائل العرب ورجالها بالأندلس :

يا أيها العرب في أقصى محلتهم		أنتم نيام ومن يشناكم سهر
ما عيش عدنان دون الحي من يمن		أو عيش ذي يمن قد خانها مضر

إذ إن دلالة هذا الاستفهام في جملتي البيت الثاني تفضي من خلال تفاعلها مع سياقها النصي ممثلاً في النداء قبلها والخبر بعدها إلى دلالة الرفض والإنكار والاحتجاج لما عليه حال تلك القبائل من فرقة ونزاع وتنافس، مما يضعف من شأنهم أمام منافسيهم من المولدين، ثم تفضي تلك الدلالة الأخيرة من خلال سياق الموقف ذاته إلى الدلالة على الحث على الوحدة والترابط، وتزيين الفكرة الداعية لوحدة الجنس العربي .

ومن الشواهد أيضاً على تلك الدلالة الإنكارية للاستفهام قول أحد الشعراء إبان وزارة المنصور بن أبي عامر من أبيات طويلة :

أيكون حياً من أمية واحد		ويسوس ضخم الملك هذا الأحدب؟

إذ تفضي دلالة الاستفهام إلى معاني الاستنكار والاحتجاج لصمت رجال بني أمية أمام تصاعد نفوذ الوزير وتحكمه في أمور الدولة صغيرها وجليلها، ثم تتحول تلك الدلالة إلى معاني الاستنهاض والتحريض لهم على تقليص نفوذ الوزير أو الخلاص منه .

ويتشابه مع تلك الدلالة الاحتجاجية للاستفهام قول الشاعر السميسر الألبيري فى ملوك الطوائف بعد أن فرقوا كلمة المسلمين، ولانوا أمام أعدائهم من النصارى الأسبان :

ناد الملوك وقل لهم		ماذا الذي أحدثتم؟
أسلمتم الإسلام في		أسر العدا وقعدتم

إذ تنقلب دلالة الاستفهام في البيت الأول (ماذا الذي أحدثتم؟) والذي يشبه صرخة مدوية في وجه أولئك الملوك والأمراء جميعاً إلى دلالات الرفض والاحتجاج على ما آل إليه حالهم، وما انحدرت إليه أعمالهم .

أما جمل الأمر والنهي وهما يمثلان لوناً من الطلب الصريح المباشر الذي يأتي في صورتين لغويتين إحداهما طلب بالإيجاب، والأخرى طلب بالسلب، فتنحصر دلالاتها في نصوص شعر العصبية القبلية والعرقية في عدة دلالات من أهمها التقريع والتوبيخ، والتحذير والتهديد، والحث والتحريض .

فمن شواهد الدلالة الأولى في جمل الأمر والنهي قول السميسر مخاطباً ملوك الطوائف بالأندلس :

وجب القيام عليكم		إذ بالنصارى قمتم
لا تنكروا شق العصا		فعصا النبي شققتم

إذ إن دلالة الطلب في البيت الأخير تفضي إلى دلالات التقريع والتوبيخ لأولئك الحكام الذين فرقوا كلمتهم وذلوا لأعدائهم، كما إنها تحمل شيئاً من التحذير بسوء عاقبتهم، وثورة الرعية عليهم .

الصورة الشعرية

من المعلوم بالضرورة أن ألفاظ الشعر وعباراته لا تقف عند الدلالات الأصيلة والمباشرة لمفرداته، وأن الدلالة الكلية للنص الشعرى إنما تزيد كثيراً على مجموع دلالات ألفاظه، ذلك أن اللغة الشعرية ' إنما تحمل مستويات متنوعة من الدلالات، وطيوفاً متعددة من الإيحاءات، يتخلق ذلك كله عبر عدد من الصور المجازية الجزئية التي تنتظمها صور أكبر، وذلك بفعل ملكة الخيال الخلاقة، وعلى ذلك فالصورة الشعرية بإجماع النقاد إنما هي لب العمل الشعرى وجوهره الأصيل .

وهذا يجرنا بالتالى إلى الوقوف على الدور أو الوظيفة الأساسية للصورة في العمل الشعرى، تلك الوظيفة التي تطورت عبر الزمان والمكان، وتواكبت مع الإطار الأدبي والثقافي، فالنقاد العرب مثلاً قد حصروا الوظائف المختلفة للصورة الفنية في الشعر العربي القديم في أربع وظائف تمثلت كما يقرر الدكتور جابر عصفور في : «الشرح والتوضيح، والتحسين والتقبيح، والمبالغة،والوصف والمحاكاة » [1] .

(١) الدكتور جابر عصفور: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، ص ٢٣٢ومابعدها،دار التنوير،بيروت ١٩٨٣.

ويلاحظ أن الوظيفة الثانية (التحسين والتقبيح)، إنما هي الأقرب إلى طبيعة الصورة الشعرية في رؤية النقد الأدبي الحديث، إذ إنها تعكس أعلى درجات الإيحاء والتأثير الذي يقوم به الشعر في نفوس المتلقين .

وحين ننظر في نصوص شعر العصبية القبلية نجدها تفعِّل إلى حد بعيد تلك الوظيفة الإيحائية للصورة الشعرية المتمثلة في جدلية التحسين والتقبيح، ذلك أن نصوص هذا التيار الشعري إنما هي تتأسس من حيث الموقف و الرؤية الإبداعية على تعارض ثنائي واضح، يتأسس بدوره على طبيعة التنازع والصراع بين طرفين أو أكثر جراء تلك العصبية القبلية أو العرقية، فالشاعر المبدع إنما هو منحاز – بالضرورة – إلى طرف من أطرف الصراع أو الخصومة القبلية وهم قومه أو حزبه أو قبيلته، معارضاً بذلك طرفاً آخر هم خصوم قومه أو منافسوهم، وبالتالى فإن تلك الصور الجزئية الكثيرة وخصوصاً القائمة على مجاز المشابهة من ضروب التشبيه والاستعارة إنما تتوزع جميعاً على ذينك المحورين السابقين من جدلية التحسين والتقبيح .

ولو أردنا التدليل على ذلك فيمكننا أن نأخذ صورة شعرية واحدة متكررة من حيث شكلها أو ظاهرها، متنوعة من حيث دلالاتها وإيحاءاتها، وهى تشبيه الإنسان بصور مجموعات من الحيوانات أو الطيور المختلفة، أو غيرها من عالم الأحياء، فالشاعر الواقع تحت تأثير نزعة العصبية القبلية أو العرقية إنما يبصر قومه أو قبيلته في صورة الليوث الكواسر، أو الصقور الجوارح وغيرها مما يشير إلى دلالات القوة والبسالة، ويوحى بالشرف والعزة والمنعة، في حين يرى أعداءهم ومنافسيهم في صورة الأرانب المذعورة، أو القرود المتسلقة الهازلة أو الهر المستأسد، أو البومة العمياء، وغير ذلك من تلك الصور المشينة المزرية .

فابن رشيق في بيتيه الشهيرين في ذم ملوك بني عباد اللخميين بأشبيلية وغيرهم من ملوك الأندلس المتجبرين الجائرين الذين يحملون ألقاباً براقة لا تسندها أعمالهم وسيرتهم في قومهم إنما يصورهم في صورة الهر الصغير الذي ينخدع عن حقيقة حاله، ويغتر بنفسه رغم تضاؤله، وينتفخ انتفاخ الليث الهصور : (١)

مِمَّا يُزَهِّدُنِي فِي أَرْضِ أَنْدَلُسٍ ... أَسْمَاءُ مُعْتَضِدٍ فِيهَا وَمُعْتَمِدِ

أَلْقَابُ مَمْلَكَةٍ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا ... كَالهِرِّ يَحْكِي انْتِفَاخاً صَوْلَةَ الأَسَدِ

وهي صورة مزرية لهؤلاء توحي بالتناقض الشديد المظهر والمخبر، والتعارض البين بين قوتهم الزائفة وتجبرهم على قومهم وبين ضعفهم وانخذالهم المشين أمام أعداء بلادهم من الأسبان .

ويصور السميسر الألبيرى في صورة دودة القز (الحرير) التي تقضى حياتها في صناعة الخيوط الدقيقة التي تحيط بنفسها ظناً منها أنها توفر بذلك الحماية والمنعة لنفسها، ولكنها بالتأكيد واهمة، فهي أوهى من خيوط العنكبوت. (٢)

صَانَعَ أَذْفُونَش وَالنَّصَارَى ... فَانْظُرْ إِلَى رَأْيِهِ الوَبِيْرِ

يَبْنِي عَلَى نَفْسِهِ سِفَاهاً ... كَأَنَّهُ دُودَةُ الحَرِيرِ

دَعُوهُ يَبْنِي فَسَوفَ يَدْرِي ... إِذَا أَتَتْ قُدْرَةُ القَدِيرِ

فذلك الأمير الذي صانع ألفونسو ملك الإسبان، واحتمى بأعداء بلاده ظناً منه أنه بذلك يحمى عرشه ويحفظ ملكه إنما هو واهم بالطبع، فقد خسر بذلك مروءته وهيبته، وعما قريب سيخسر ملكه لا محالة حين ينقلب عليه أعداؤه وتدور عليه دوائر بغيه .

---

(١) ابن رشيق القيروانى: ديوانه، تحقيق محيى الدين ديب . ص ٦٥، ٦٦ .

(٢) محمد عبد الله عنان: نقلاً عن البيان المغرب (مخطوط) .

ويصور الشاعر القلفاط إبراهيم بن الحجاج اللخمى الذي تزعم الثورة في أشبيلية واستولى على الحكم فيها فكان شحيحاً بخيلاً مع العامة مضيفاً على الشعراء فيصوره في صورة البومة العمياء : (١)

لا تَــذْكُرِي لِلْــبَينَ طُــولَ بُكَــائِي فَــالْبَيْنُ بَــرَّحَ بِــي وَ عَــزَّ عَزَائِــي

أَبْغِــى نَــوَالَ الأَكْــرَمِيْنَ مُعَــاوِلاً أَبْغِــى نَــوَالَ البُومَــةَ البَكْمَــاءِ

فما اكتفي الشعر بصورة البومة وهى صورة قبيحة منفرة مثيرة للخوف والتشاؤم، إذ هي من كائنات الشؤم ورموز الحذر والتطير، بل زاد عليها كذلك أن جعلها عمياء، مما يوحى بالحمق وقصر النظر وعدم الهداية .

ونرى صورة هذه الجدلية (التحسين والتقبيح) ماثلة في قصيدة كبيرة هي نونية أبى إسحق الألبيرى في تحريض الأمير باديس بن حبوس أمير غرناطة وقومه من صنهاجة ضد وزيره اليهودى ابن النغريلة، الذي أساء السيرة وجار على العامة ورفع قومه من اليهود فوقهم، وهى قصيدة تعكس لوناً من العصبية العرقية والدينية وليس العصبية القبلية فحسب في معناها الضيق، إذ تعكس القصيدة تصادماً بين البربر المسلمين من ناحية واليهود من ناحية أخرى .

والشاعر يقيم لقومه الصنهاجيين في مطلع القصيدة صورة بالغة الروعة والفخامة، فهم بدور المجالس، وأسود الغاب . (٢)

أَلاَ قُــلْ لِــصِنْهَاجَةَ أَجْمَعِــين بُــدُورِ النَّــدَى وَأُسْــدِ العَــرِيْن

بما توحي به الصورة من بهاء البدور وسموها، وقوة الأسود واعتزازها، في حين يصور أعدائهم من اليهود في عدة صور حيوانية متعددة توحي كل منها في

(١)ابن حيان: المقتبس تحقيق إسماعيل العربي ص ٣٠ – ١٥٥ .

(٢) انظر القصيدة كاملة في ديوان أبى إسحق الألبيرى . ص ١٠٨ وما بعدها .

سياقها بدلالات وإيحاءات متباينة، لكنها تجتمع في فلك دلالي واحد هو فلك الطعن عليهم والزراية بهم، فتارة يصورهم بأنهم قرود وزعيمهم هو القرد الأكبر الذي أصبح في غفلة من الزمان يملك أمور الرعية المسلمة في يده:

فَكَمْ مُسْلِمٍ فَاضِلٍ قَانِتٍ لأَرْذَلَ قِرْدٍ مِنَ المُشْرِكِين

وتارة أخرى يصورهم في صورة الكلاب الوضيعة المنبوذة لكن في غير بلد الأمير باديس الذي مكن لهم :

تَأَمَّلْ بِعَيْنَيْكَ أَقْطَارَهَا تَجِدْهُم كِلاَبَاً بِهَا خَاسِئِين

وتارة أخرى يصورهم بفراخ الزنا وثمار الرذيلة والقبح والفساد :

وَكَيْفَ تُحِبُّ فِرَاخَ الزِّنَا وَهُمْ بَغَّضُوكَ إِلَى العَالَمِين

وتارة أخرى يصور زعيمهم بالكبش السمين في قوله محرضاً باديس على قتله :

فَبَادِرْ إِلَى ذَبْحِهِ قُرْبَةً وَضَحِّ بِهِ فَهُوَ كَبْشٌ سَمِين

وصورة الكبش تحمل دلالتين؛ الأولى هي الزراية به والتهوين من شأنه، والثانية هي إغراء الأمير بذبحه ومصادرة أمواله الطائلة التي جمعها من دماء العامة .

وتظهر آثار هذه الوظيفة الإيحائية (التحسين والتقبيح) في قصيدتين متتاليتين لسعيد بن جودى في الفتنة بين قومه من العرب وبين المولدين بعد غدر الأخيرين بحلفهم من العرب وقتلهم يحيى بن صقالة، الأولى هي قصيدته بعد وقعة (جعد) التي أوقع فيها سوار بن حمدون القيسى بالمولدين ونكل بهم، ففيها يصور الشاعر قومه أسوداً غضاباً ثائرين لكرامتهم وحقوقهم : [1]

(١) ابن حيان:المقتبس. راجع القصيدة كلها لديه .

هِجْتُمْ يَا بَنِي العَبِيدِ لِيُوثاً لَمْ يَكُونُوا عَنْ ثَأْرِهِمْ بِقُعُودِ
فَاصْطَلُوا حَرَّهَا وَحَرَّ سُيُوفٍ تَتَلَظَّى عَلَيْكُمُ كَالوَقُودِ

بما توحي به هذه الصورة من دلالات البسالة والعزة والإباء، ثم إنه في ثنايا القصيدة حين يتطرق إلى ذكر زعيم القيسية يحيى بن صقالة الذي نالته يد الغدر يصوره هو الآخر في ذات الصورة المشرفة الرائعة :

كَانَ لَيْثاً يَحْمِي الحُرُوبِ وَحِصْناً وَمَلاذاً وَعِصْمَةُ المَصْفُودِ

وفي القصيدة الأخرى للشاعر نفسه في وقعة المدينة التي أوقع فيها قومه ثانية بالمولدين بعد وقعة (جعد) السابقة نراه يرسم لأولئك الأعداء (بنى الأحمر) صورة شائهة مزرية من الضعف والهوان : (١)

يَقُولُ بَنُو الْحَمْرَاءِ لَوْ أَنَّ جُنْحَنَا يَطِيرُ لَعَشَّاكُمْ بِشُؤْبُوبٍ وَابِلِ
وَضِقْتُمْ بِهِ ذَرْعاً وَجَاشَتْ نُفُوسُكُمْ وَمَا مَنَعَتْكُمْ مَانِعَاتُ الْمَعَاقِلِ
فَقَدْ كَانَ طَرْدُ الجُنْحِ إِذْ طَارَ نَحْوَنَا كَذِبَّانِ حَسْوٍ أَوْ كَدُودِ المَزَابِلِ

والصورة تضرب في أفقين متعارضين رغم اشتراكهما في ظاهر الشكل، وذلك لأنها تتبع من منظورين مختلفين، من منظور أنفسهم المغترة بقوتهم المخدوعة عن حقيقة أمرهم، ومنظور الشاعر وقومه وهو الذي يعي الحقيقة اليقينية المدعومة بنتائج اللقاء في ساحات الوغى، فهم عند أنفسهم صقور جوارح، أو طير أبابيل تحمل لأعدائها الهلاك والفناء، وهم عند الشاعر وقومه ذباب يحوم على القمامة، أو دود يسرح في جوفها، بما يوحى به ذلك من الضعف والهوان وضآلة الشأن .

(١) المرجع السابق: ص ٨١ .

وفي مقابل هذه الصورة المزرية للأعداء يرسم الشاعر في القصيدة ذاتها لقومه صورة مشرفة توحي بالقوة والبطولة مؤكداً فيها على وحدة القبائل العربية عدنانيها وقحطانيها، مصوراً زعيم العصبة العربية بالأسد الهصور :

بِهَا مِنْ بَنِي عَدْنَانَ فِتْيَانُ غَارَةٍ وَمِنْ آلِ قَحْطَانَ كَمِثْلِ الأَجَادِلِ

يَقُودُهُمُ لَيْثٌ هَزِيْرٌ ضُبَارِمٌ مَحَشُّ حُرُوبٍ مَاجِدٌ غَيْرُ خَامِلِ(١)

ولعل من تلك النصوص التي عكست هذه الوظيفة الإيحائية للصورة الشعرية قول إبراهيم بن إدريس الحسنى إبان عهد المنصور بن أبى عامر في أواخر عهد الخلافة الأموية بالأندلس متعجباً من استبداد ابن أبى عامر بالأمور دون أمراء بني أمية بزعم الحفاظ على عرش الصبى الصغير الذي لا يملك من الأمور صغيرا ولا كبيراً، فقال ضمن قصيدة طويلة :

أَبَنِي أُمَيَّةَ أَيْنَ أَقْمَارُ الدُّجَى مِنْكُم؟ وَأَيْنَ نُجُومُهَا وَالكَوْكَبُ؟

غَابَتْ أُسُودٌ مِنْكُم عَنْ غَابِهَا فَلِذَاكَ حَازَ المُلْكَ هَذَا الثَّعْلَبُ(٢)

إذ تعكس الصورة التعارض بين دلالات العزة والشرف والضآلة مسندة إلى بني أمية ذوى المجد التليد ودلالات الخسة والمكر والانتهازية مسندة إلى ذلك الوزير، وذلك من خلال التعارض بين صورتى الأسد والثعلب وما تشير إليه كلاهما من دلالات .

(١) ابن حيان:المقتبس، ص ٨١، تحقيق إسماعيل العربي .

(٢) المقري: نفح الطيب ٢٨٦/١ .

الخاتمة ونتائج البحث

دار هذا البحث حول ظاهرة من الظواهر المهمة فى تاريخ الشعر العربى وهى أثر العصبيات القبلية والعرقية فى إنتاج الشعر ودفع الشعراء نحو الإبداع ، إذ إن موضوع العصبية قديم قد الشعر العربى فى الجاهلية ، بيد أننى وجهت هذا البحث وجهة مختلفة عن تلك البدايات مكانيا وزمانيا ، فأما من حيث المكان فقد اخترت بيئة أدبية جديدة كانت ثرية بإنتاج الأدبى وهى بيئة الأندلس ، وأما من حيث الزمان فيشمل القرون الأربعة الأولى من عمر الدولة العربية بها ، وذلك منذ الفتح الإسلامى لها أواخر القرن الهجرى الأول وحتى نهاية عصر ملوك الطوائف بها أواخر القرن الهجرى الخامس .

وقد قسمت هذا البحث إلى عدة مباحث جزئية يدور ثلاثة منها حول أثر العصبيات فى الشعر الأندلسى فى عصور ثلاثة مرت بها الدولة العربية بها وهى عصر الولاة ، وعصر دولة بن أمية فى طورى الإمارة والخلافة ، ثم عصر ملوك الطوائف ، وقد درست فى هذه المباحث الثلاثة دور العصبيات فى إنتاج ذلك الشعر ، واتجاهاته الموضوعية ، أما المبحث الرابع فقد خصصته لدراسة الخصائص الفنية فى نصوص ذلك التيار الشعرى رابطا فيه بين اتجاهاته الموضوعية وسماته الفنية ، وقد دار حول المعجم الشعرى والبناء الأسلوبى والصورة الشعرية ، وجميعها من وسائل التشكيل الفنى ، هذا بالإضافة إلى خصائص ذلك الشعر من حيث الشكل العام وبناء النص وتداخل معانيه .

وقد خلصت من خلال هذا البحث إلى عدة نتائج أجملها فيما يلى :

١- كان للعصبية القبلية بين قبائل العرب من يمينة وعدنانية أثر قوى فى المجتمع الأندلسى وأدبه ، إذ انتقلت تلك الظاهرة الاجتماعية إلى الأندلس مبكراً ، إذ دخلتها مع الفاتحين العرب .

٢- اتسعت دائرة العصبية بمعنى الزمن ليظهر لون جديد منها يتمثل فى العصبية العرقية دفع إليها اختلاف فئات المجتمع الأندلسى وأعراق عناصره من عرب وبربر ومولدين ، مما أسهم فى إذابة ذلك اللون الأول من العصبية القبلية إلى حد كبير .

٣- انعكست آثار تلك الأشكال من العصبية على الشعر الأندلسى بشكل واضح كما وكيفا ، إذ كانت ميثراً من أكبر مثيرات الشعر ، ودافعا من أهم دوافع القول ، مما أدى إلى إثراء حركة الشعر وإشعال جذوته ، كما أدت إلى تنوع التجارب ، وتداخل الموضوعات وتعدد الاتجاهات .

٤- إذا كانت العصبية فى ذاتها تمثل شراً مستطيراً ، ومدعاة لتفكك المجتمع وتصارع عناصره ، فإن نتاجها الشعرى لم يكن كله شرا محضاً ، إذ إن شطرا كبيراً منه يدور حول مجموعة من الموضوعات منها تكريس الفضائل الاجتماعية التى يكون بها مناط التمدح والافتخار ، ومنها الدعوة إلى وحدة أبناء الجنس الواحد بعد تفكك فى مواجهة الآخر ، ومنها الحث على الثورة ضد الظلم والانتصاف من الفئات الباغية والمعتدية ، وهى من الموضوعات التى تحمل فيما أخلاقية واجتماعية لا غبار عليها .

٥- إذا كانت نصوص هذا التيار الشعرى يرفض بعضها من الناحية الأخلاقية ويقبل بعضها الآخر ، فإنها تقبل جميعا من الناحية الفنية إذ تتسم دائما بروعة البناء وقوة التأثير ، لما تتضمنه من حرارة الانفعال وصدق التجربة .

٦- تنوعت أشكال تلك النصوص ما بين شكل الأبيات المفردة ، أو المقطوعة الشعرية ، أو القصيدة ، وفى تلك القصائد تداخلت المعانى والأغراض الشعرية المختلفة من فخر وهجاء ومدح ورثاء وتحريض وحماسة ، أى أنها توافقت مع التقاليد الأدبية لشعر العصبية فى العصرين الجاهلى والأموى فى الشرق .

٧- انعكست طوابع الموضوع الشعرى على الشكل الفنى من خلال وسائل الأداء الفنى المختلفة بدءاً من الحقول الدلالية للمعجم الشعرى ومروراً بالبناء الأسلوبى الذى غلبت عليه جمل الإنشاء المختلفة ، وانتهاء بالصورة الشعرية الذى تميز بناؤها النصى فى تكريس إحدى وظائف الصورة فى النقد العربى ممثلة فى جدلية التحسين والتقبيح .

وختاماً :

أرجو أن أكون قد وفقت لما طمحت إليه من معالجة جوانب الموضوع المختلفة ، وإبراز أهميته ، والكشف عن طوابعه الخاصة ، فما كان من إصابة فلله الفضل والمنة ، وما كان من زلل أو تقصير فحسبى المحاولة ، وعلى الله قصد السبيل .

المصادر والمراجع العربية

أولاً :الكتب العربية :

(١) ابن الأبار : (أبوعبدالله محمد بن عبدالله بن أبى بكر القضاعي) الحلة السيراء، حققه وعلق حواشيه الدكتور حسين مؤنس، الطبعة الثانية، دار المعارف، سنة ١٩٨٥م .

(٢) ابن الأثير : (أبو الحسن على بن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبدالكريم بن عبدالواحد الشيباني، المعروف بابن الأثير ت ٦٣٠هـ) الكامل في التاريخ، راجعه وصححه الدكتور محمد يوسف الدقاق، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥م

(٣) ابن بسام (أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني) : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٠م

(٤) ابن بشكوال : (أبوالقاسم خلف بن عبدالملك ت٥٧٨هـ) كتاب الصلة في جزئين، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٨م.

(٥) جابر عصفور(الدكتور):الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب،الطبعة الثانية،دار التنوير،بيروت ١٩٨٣م.

(٦) الحميدي:(أبو عبدالله محمد بن أبى نصر فتوح بن عبدالله الأزدي ت ٤٨٨هـ) جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٨م

(٧) ابن الخطيب : (لسان الدين ذو الوزارتين) أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق ليفي بروفنسال، طبعة دار المكشوف، بيروت ١٩٥٦هـ .

(٨) ابن سعيد المغربي : المغرب في حلى المغرب، تحقيق الدكتور شوقي ضيف ،طبعة دار المعارف ١٩٩٣.

(٩) بن شرف (أبو عبد الله محمد . ت ٣٩٠- ٤٦٠هـ) : ديوانه، تحقيق الدكتور حسن ذكري حسن، نشر مكتبة الكليات الأزهرية .

(١٠) الضبي (أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة . ت ٥٩٩ هـ) : بغية الملتمس

في تاريخ رجال أهل الأندلس ص ٢٧٦ طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ٢٠٠٨م.
(١١)الطاهر أحمد مكى (الدكتور): دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة، طبعة دار المعارف،الطبعة الثالثة، القاهرة ١٩٨٧ .
(١٢) ابن عبد ربه (أحمد بن محمد) ت٣٢٨هـ . ديوانه، جمعه وصحح نصوصه وقدم لقصائده وشرح معانيه الدكتور/ محمد رضوان الداية، طبعة دار الفكر، الطبعة الثالثة، دار الفكر دمشق، سوريا سنة ١٤٢٤هـ /٢٠٠٣م.
(١٣)ابن عبد ربه (أحمد بن محمد) ت٣٢٨هـ . العقد الفريد، تحقيق/ أحمد أمين وآخرين، طبعة الزخائر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، إبريل ٢٠٠٤م .
(١٤) ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب، تحقيق ج . س . كولان، و إ .ليفي بروفنسال، طبعة دار الثقافة، بيروت .
(١٥) الفتح بن خاقان:قلائد العقيان، تحقيق حسين يوسف خريوش، مكتبة المنار بالأردن .
(١٦) على محمد سلامة : (الدكتور) الأدب العربي في الأندلس، الدار العربية للموسوعات.
(١٧) ابن حزم : (أبو محمد على بن أحمد ت ٤٥٦هـ) جمهرة أنساب العرب، تحقيق ليفي بروفنسال طبعة دار المعارف – القاهرة سنة ١٩٤٨، تحقيق عبدالسلام هارون القاهرة سنة ١٩٧١م.
(١٨) ابن القوطية : (محمد بن عمرو بن عبدالعزيز ت ٣٦٧هـ) تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق عبدالله أنيس الطباع، بيروت ١٩٧٥م، طابعة رابيرا مدريد ١٨٦٨م تحقيق/ ابراهيم الأبياري – الطبعة الأولى ١٤ ٠٢هـ /١٩٨٢م – الناشرون دار الكتب الإسلامية.
(١٩) مؤلف مجهول : أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بها بينهم، تحقيق إبراهيم الإبياري، الطبعة الثانية، طبعة دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني .
(٢٠) المبرد: (أبوالعباس) الكامل في اللغة والأدب تحقيق حنا الفاخوري – طبعة دار الجيل.
(٢١) المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين) : مروج الذهب ومعادن الجوهر،

تحقيق وتعليق سعيد محمد اللحام ،الطبعة الأولى، طبعة دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، سنة ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م .
(٢٢)المقري (التلمساني) : نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تحقيق الدكتور إحسان عباس، طبعة دار صادر، بيروت
(٢٣)محمد عبد الله عنان : (الدكتور) دولة الإسلام في الأندلس طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب.

ثانياً :كتب مترجمة :

(٢٤) هنري بيريس : الشعر الأندلسي في عصر الطوائف ،ترجمة الدكتور/ الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م
(٢٥) دوزي (رينهرت) :تاريخ مسلمى إسبانيا ترجمة حسن حبشي، طبعة المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر .
(٢٦) غومث (إمليوغرسيه) : مع شعراء الأندلس والمتنبي، ترجمة الدكتور الطاهرمكي، الطبعة الخامسة دار المعارف بالقاهرة ١٩٩٢م.
(٢٧) يورى لوثمان : تحليل النص الشعري ، ترجمة الدكتور / محمد فتوح أحمد ، دار المعارف ١٩٩٥م.